مظاهر مُطابقة مُقتضَى الحال في الهدْي النَّبويّ

دكتور

أحمد بن صالح السديس

الأستاذ المشارك في قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي

كلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض

مـقـدمـة

الحمد لله علَّم بالقلم، وأنعم وألهم، وأرسل رسوله للخلق إمامًا فأرشد وعلّم، وأيّده بالوحي والبيان فأقام الحجّة وأفحم، فصلى الله عليه صلاة دائمة وسلّم، وعلى آله وأصحابه ومَن بهم يُؤتمّ، أمّا بعد:

فإنّ للبيان في القلوب أثرًا، وإنّ منه لسِحرًا؛ فهو الوشيجة بين الناس، وهو الصلة بين الأجناس، في كلّ عصر فيه مبرِّزون، وفي كل قطر به مميّزون، قد أحسنوا فيه فصار تأثيرهم ظاهرًا، ورأيهم منتشرًا ومقدَّرًا، ومن ذا ينكر أثر جميل القول، وبليغِ الخطاب إلا أنْ يكون أصمَّ حائرًا!

تبارى الأدباء في ميادين الشعر والنّثر، وتسابق الكُتّاب في ساحات القول، وتنافسوا في أفانين من الروض والزَّهر، وأقرَّ الناس لبعضهم بالسبق، وتخاصموا حول بعضهم بالحطّ أو الرفع، لكنّ واحدًا لم يجرؤوا على النيل منه، أو الحطّ من قدره في البيان، وأقرّوا له بالريادة والسَّبق، هو النبيّ محمد ρ.

والذي بهر في بلاغته υ أنها بلاغة تصدر عن فطرة خالصة، وطبيعة صافية، لم تعكّر صفوَها الدِّلاء، ولم تخالطها الشوائب والأقذاء، فهي بلاغة رجل أمّيٍّ لم يقرأ في حياته كتابًا، فكانت بلاغته عفوَ الخاطر، تسعفه فيها نشأةٌ عربية، وبديهةٌ حاضرة، ولغةٌ راقية، وقرآنٌ معجز، وصار بيانه متناسبًا مع كل عصر وحين، وكيف لا يكون كذلك وقد بُعث للعالمين، واختُتمت به دعوات الرسل أجمعين؟

يقول الرافعيّ: ((كان ρ في اللغة القرشية ـ التي هي أفصحُ اللغات وألينها ـ بالمنزلة التي لا يُدَافَع عليها، ولا يُنَافَس فيها، وكان من ذلك في أقصى النهاية، وإنما فَضَلَهم بقوة الفطرة واستمرارها وتمكنها، مع صفاء الحسّ ونفاذ البصيرة واستقامة الأمر كله، بحيث يصرِّف اللغة تصريفًا، ويديرها على أوضاعها، ويشق منها في أساليبها

ومفرداتها ما لا يكون لهم إلا القليل منه؛ لأن القوةَ على الوضع، والكفايةَ في تشقيق اللغة وتصاريف الكلام، لا تكون في أهل الفطرة مزاولةً ومعاناةً، ولا بَعْدَ نظرٍ فيها وارتياضٍ لها، إنما هي إلهام بمقدار، تهيئ له الفطرة القوية، وتعين عليه النفسُ المجتمعة، والذهنُ الحادُّ، والبصرُ النفَّاذُ، فعلى حسب ما يكون للعربي في هذه المعاني، تكون كفايته ومقدار تسديده في باب الوضع. وليس في العرب قاطبة من جمع الله فيه هذه الصفات، وأعطاه الخالص منها، وخصّه بجملتها، وأسلس له مآخذها، وأخلص له أسبابها كالنبيّ ρ؛ فهو اصطنعه لوحيه، ونصبه لبيانه، وخصَّه بكتابه، واصطفاه لرسالته؛ وماذا عسى أن يكون وراء ذلك في باب الإلهام، وجماع الطبيعة، وصفاء الحاسَّة، وثقوب الذهن، واجتماع النفس، وقوة الفطرة، ووثاقة الأمر كله بعضه إلى بعض؟))[1].

وإنّ النّاظر في هذا الإرث النبويّ، من الحديث والبيان البليغ؛ ليجِدُ فيه روحًا يشعر بحرِّ أنفاسها في صدره، فهو يمسُّ . في مواقف . مَسَّ النسيم العليل، رقَّةً وهدوءًا ولُطفًا، ويرتفع . في مواقف أُخَرَ . ارتفاعَ الموج العالي، شدّةً وقوّةً وحزمًا؛ إذْ الجملة البليغة في العربية وليدة لحظتها، وبِنْتُ مَقامها وسياقها!

ومن هذه الجهة هبَّت رياح هذا البحثِ؛ فاستثارت النظرَ في هذه الظاهرة، التي عُني بها البلاغيون منذ نظروا في الكلام وتأمّلوه، وأقاموا بينهم وبينه حبلا وثيقا وأبرموه؛ إنها "مطابقة مقتضى الحال"؛ فلا بلاغةَ إلا بالتعلّق بأهدابها، والسير في ركابها، وقد يُغتفر للفصيح بعضُ زلاّته، ويُتجاوز عن هفواته، لكنْ هيهات أنْ تُغتفر له إساءتُه في التعبير بقول لا يلائم الحال ومقتضياته؛ إذْ لكلّ مناسبة زِيُّها ولباسُها.

وحين بدأ البحثُ أولى خطواته كان لزامًا أن ينظر في مئات الأحاديث النبوية

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٨٤.

الشريفة ليضع معالم الطريق؛ فوجد مظاهر كثيرة ينوء بحملها كلها؛ فاكتفى بما رآه أهمّ وأنفع وأجلى، راجيًا أنْ تُتاح للباحث فرصة أوسع، ليشرُف بمزيد من الدراسة. ثم إنه وجد أنّ مطابقة مقتضى الحال في الكلام النبوي قد تكون مرتبطة بموقف غير لفظيّ، دعا الرسولَ الكريمَ إلى استخدامٍ معيّن للكلام، كاستثمار موقف مشاهَد وحاضر؛ أو مراعاة للحال باستخدام غير لفظي، كاستخدام الحركة والإشارة؛ فآثر أن يكون العنوان مرتبطًا بـ"الهدي النبوي"؛ إذْ هو أشمل من التعبير بما يدل على اللفظ اللغويّ المجرّد.

ومثل هذه الدراسة تكْمن لذَّتها في صعوبتها، ومردّ ذلك إلى أنها محاولةٌ للكشف عن خبيئات خفيات من دواعي القول وأسبابه، ونظرٌ في ظروف بثِّه وإنشائه. وأجِد من الجيّد في ختام هذا المطلع أنْ أنقل كلمةً لشيخي، أكّد فيها على أنّ دراسة أسرار هذا اللسان ((كانت في جوهرها دراسةً لأسرار الإنسان، وتعرُّفًا على أخفى وأغمضِ ما يختلج في بواطنه من حِسٍّ وشعور، وأنّ العناية بالأحوال والكيفيات والتراكيب ليست إلا بحثًا في أسرار القلوب والعقول، الماثلةِ في أسرار الكيفيات والتراكيب، وأنّ المعنى الخفيَّ الغامضَ والمستكنَّ وراء هذا الحال من أحوال اللفظ العربي إنما هو تلك الاختلاجة الخفية والغامضة في باطن النفس التي أبدعت هذا التركيب))[1].

ولقد وجدت في موضوع هذا البحث ما يقرّبني إلى القوم؛ أولئك الذين كانوا أهل "خير قرن"؛ ففي تحليل كلامهم، والوقوف على سمْت بيانهم، دراسةٌ لقلوبهم ونفوسهم الشريفة الطاهرة، واستنارةٌ بآدابهم ومبادئهم الفاضلة، وكلامهم أهدى دليل، وهو إلى تلك الغاية مرشد وسبيل.

والله المسؤول العون والسداد.

---

(١) دلالات التراكيب ٣٩.

تـمـهـيـد

مطابقةُ مقتضى الحال ركنٌ مهمٌّ من أركان البلاغة، لا تستقيم بدونه، وعليه وعلى الفصاحة بُني تعريفها، فالبلاغة هي "مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال"، وترتفع قيمة الكلام أو تنحطّ بمقدار مطابقته لما يليق به من أحوال ومقتضيات(١).

وكلمتان تتنافسان في الاستخدام في هذا السياق، وهما "المطابقة" و"المراعاة"، والأُولى واردةٌ في تعريف البلاغة، وتتكرر في بيانه وشرحه، والثانية يكثر استخدامها في السياقات العامة. والمطابقة أخصُّ من المراعاة وأدقّ؛ فكل مطابقة مراعاةٌ، وليس كلُّ مراعاة مطابقةً. و"المطابقة" هي هدف المتكلم البليغ؛ إذْ كلّ متكلِّم يسعى إلى المطابقة التامّة بين المقام وما يتطلبه، وأمّا المراعاة فهي أنْ يراعي تلك الأحوالَ والمقتضياتِ، وأنْ ينظر إليها بعناية واهتمام، وقد يصيب فيصِلُ درجةَ المطابقة، وقد تقلّ إصابته فينزل حظّه من البلاغة.

و"مطابقة مقتضى الحال" عبارةٌ نفيسةٌ مبنيّة على ثلاثة مستويات؛ الحال، ومقتضاه، ومطابقة ذلك:

- فأمّا الحال فهو ـ بإيجازٍ ـ الدَّاعي، أو هو الأمر الحامل على إيراد الكلام بصورة خاصة، كحال الإنكار، أو الذكاء. فهو ((الأمر الذي يدعو المتكلم إلى أن يعتبر في كلامه خصوصيةً ما، أي: هو ذلك الداعي الذي يهتف بالفطرة الصادقة إلى أنْ تُجري صياغةَ العبارة على طريق دون آخر))(٢).

(١) ينظر: مفتاح العلوم ١٦٨، وبغية الإيضاح ٢٩/١، وخصائص التراكيب ٧٣.

(٢) خصائص التراكيب ٧٢.

- وأمّا مقتضى الحال فهو . بإيجازٍ . مطلوبُه، أو هو هيئة الكلام المناسبةُ لحالٍ معينة؛ كهيئة التأكيد المناسبة للإنكار، وهيئة الإيجاز المناسبة للذكاء.
- وأمّا مطابقة الكلام له فتعني . بإيجاز . تحقيقَ المطلوب، أو هي إخراج الكلام بالهيئة المناسبة لحال معينة؛ أي: أنه استثمار للحال ومقتضاه في بناء الكلام، وهو استثمار يثمر خروج الكلام بصورة مقبولة عند المتلقي، ومؤثّرة عليه؛ كتحديد وسائل التأكيد للمنكر، ووسائل الإيجاز للذكيّ.

وهذا يعني أنّ "الحال" و"مقتضاه" أمران نظريّان، و"المطابقةَ" هي الرباط الجامع، والتحقيقُ الفاعل، أو هي النتيجةُ الفعليةُ، والثمرةُ المرجوَّةُ لمعرفة الحال ومقتضاه؛ ومن هنا كانت ركنًا للبلاغة وعمادًا.

ولم يبعد البلاغيون كثيرًا بهذا التعريف للبلاغة عن مفهوم "النظم" عند عبدالقاهر؛ إذْ أراد به اتحادَ أجزاء الكلام، وارتباطَ ثانيه بأوله، حتى يكون مزيجًا واحدًا[1]، وهذا لا يكون إلا حين يكون المتكلِّم على بَصَرٍ واعٍ ودقيق لأحوال المقام، وأنسب كلام لها. ولقد كان ((أكثر كلامه ρ من الكلام الذي ترى فيه الجمل تتداخل وتتنامى، ويلتحم بعضها ببعض حتى تكون كالجملة الواحدة، توضع في النَّفْس وضْعًا واحدًا))[2].

ومن المهمّ الإشارة إلى أنّ مطابقة مقتضى الحال لا يكون النظر فيها إلى المخاطَب فحسب؛ هو لا شكَّ قُطبُ الرَّحَى في النظر، لكنه ليس كلَّ شيء. إنّ المطابقة التامّة تعني سبرَ أغوار الموقف كاملاً، بإدراك المتكلّم لمشاعر نفسه وخلجاتها، ولحال المخاطَب وكوامن رغباته، وإحساسه بزمن المقام ومكانه؛ فلكلٍّ حقٌّ

(١) ينظر: دلائل الإعجاز ٩٣.

(٢) دلالات التراكيب ٣٥٠.

ينبغي أنْ يؤدَّى كاملاً غيرَ منقوص. وهذا ما يمكِّننا من فهم كثير من مقامات القول وأسرار الجمل؛ إذْ قد يقيم المتكلّم عبارته، من غير اعتبار لمن سيتلقَّاها لأنّه أراد أنْ يُعبِّر بها عن شيء دار في نفسه، فخرج في بيانه، وقد يكتب البليغ قطعة أدبية شائقة، أو قصيدة رائقة، يعبّر فيها عن مشاعره ودفائن نفسه، وفيها من صور التوكيد ودلائله ما فيها، ولم يكن ثمّة مخاطبٌ يخاطبه، ولكنه في حقيقته يخاطبُ نفسَه، ويناجيها. ولا أظن أني سأُغرب حين أقول إنّ مراعاة المتكلِّم لحاله ربما يدخل تحته الكثيرُ مما ذكره البلاغيّون من صورٍ لخروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر.

فقد تنظر في أحوال الناس من حولك، فتؤلمك صورُ الظلم هنا ومشاهدُ البغي هناك، فتتذكّر قدرة الله Y، وأنه الملجأ والقاهر، فتقول وحولك مؤمنون مثلك: "هو النصير"؛ فيكون في تأكيد الكلام تهدئةٌ لنفسك المتهيّجةِ بما رأت، المنفعلةِ بما علمت. وقد تسير وحدك فتجد ((الطريق وقد ملأه الناسُ سائرين فيه فيقع في نفسك أنّ هذا الطريق كأنه هو الذي يسير، فلا تقول: "سار الناس في الطريق"، وإنما تقول: "سار بهم الطريقُ"، والتعبير الثاني أكثر ملاءمة لحالة نفسك التي أحسَّت أو خُيِّل إليها أنّ الطريق يسير))(١).

ومن هذا الباب أكثر صور مناجاة الخالق، وهو العليم المطّلع على الضمائر I، ها هو زكريّا يخبرنا البيان القرآنيُّ عنه، وقد بلغ به التعب مبلغه، وأحسّ بحاجة إلى ولد يسنده، فلجأ إلى ربه خاليًّا وحيدًا لا ثالث لهما؛ فغلبت عليه مشاعره، وارتفعت حرارة كلماته وألفاظه، وخرجت على لسانه مختلطة بمشاعر جيّاشة فيّاضة، فقال في دعاء مُلِئ بالمؤكِّدات: ﱡ □□□□□□□ يم يى □□□□ ﱠ □□□□□□□□ بر □ﱠ [مريم: ٤-٥].

---

(١) خصائص التراكيب ٧٠.

وعند قول الحق I: ﴿ ... ﴾ [البقرة: ١٤] أنعم الزمخشريّ النظر في سرِّ ورود الكلام في مخاطبة المنافقين غُفْلاً من التوكيد، بالرغم من كون المخاطَب منكرًا، وروده مؤكَّدًا في خطاب أمثالهم ونظرائهم، فقال ما يمكن أنْ يكون أصلاً في هذا: ((لأنهم في ادّعائهم حدوث الإيمان منهم ونشئه من قبلهم، لا في ادّعاء أنهم أوحديُّونَ في الإيمان غير مشقوق فيه غبارهم، وذلك إمّا لأنّ أنفسهم لا تساعدهم عليه، إذْ ليس من عقائدهم باعث ومحرِّك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحيّة وصدق رغبة واعتقاد ... وأمّا مخاطبة إخوانهم فهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر، والبعد من أنْ يزلّوا عنه على صدق رغبة ووفور نشاط وارتياح للتكلم به))(١)، وهذا قولٌ سخيٌّ متين، وهو بيّن واضح في أنه أرجع التأكيد في الكلام أو عدمَه إلى إحساس المتكلّم ورغبته.

والجميل في مبحث "مراعاة المطابقة" أنه مبحث ينفذ إلى زوايا الموقف التي لرُبما ضعُف الضوء فيها، أو غفل المرء عن النظر إليها، وإلى أعماق النفس الإنسانية التي يخاطبها؛ فيصبح حديثُ البليغ من باب "حديث الروح للروح"، وهمسات النفس للنفس، فتصير الكلمة جزءًا من بناء الحياة. وحِذْقُ المتكلِّم يظهر ويتجلّى حين يكون قادرًا ((على صياغة كَلِم اللغة صياغةً بصيرة واعية، تَصِفُ كلَّ خاطرة من خواطر نفسه، وتُفصِح عن كل فكرة تُومِض في كيانه، أو شعورٍ يختلج في مطاويه، وعبقريةُ اللغة تكمن في مرونتها، وطواعيتها، وإفادتها دقيقَ المعاني بوجوهِ وفنونِ الصياغة، فتصف بهيئة الكلمة، وتشير بخصوصية التركيب))(٢).

---

(١) الكشاف ١/٥٠، وعلّق أحمد بن المنيّر رحمه الله على هذا الكلام بقوله: ((أحسن الزمخشري رحمه الله في تقريره ما شاء، وأجمل ما أراد)).

(٢) خصائص التراكيب ٧٧.

إنّ للكلام الذي يخرج من القلب أثرًا في نفوس السامعين، وهذا غاية ما يهدف إليه المتحدِّث، وهذا التأثير لا يمكن أن يكون إلا عند مراعاة مقتضى الحال، بظهور حرِّ أنفاس المخاطِب، والنفاذ إلى داخل نفْس المخاطَب، والإحساس بالمكان والزمان! سمع الحسنُ البصريُّ رحمه الله رجلاً يعظ، فلم يتأثر بكلامه، فقال: ((يا هذا، إنّ بقلبي لَشرًّا أو بقلبك!)). وكان واعظٌ يزجر الناس يومًا ويقول: ((ما لي أرى القلوب لا تخشع؟ ما لي أرى العيون لا تدمع؟))، فقال محمد بن واسع: ((ما أراهم أُتُوا إلا من قِبلِك!))، يقصد: أنّ هذا الواعظ لو كان صادقًا لأثار عواطف الناس؛ فخشعوا.

وقد كان كلام رسول الله ρ مؤثِّرًا، حتى جاء في أحاديث عديدة أنّه وعظ الناسَ فذرفت عيونهم، أو أنهم أنصتوا إليه وكأنّ على رؤوسهم الطير. كما في حديث العرباض بن سارية τ: ((وعَظَنَا رسولُ اللَّهِ ρ يومًا بعد صلاةِ الغَدَاةِ موعِظَةً بليغةً، ذَرَفَتْ منها العيونُ، ووَجِلَتْ منها القلوبُ، فقال رجلٌ: إنّ هذه موعظةُ مُوَدِّعٍ، فبماذا تعْهَدُ إلينا يا رسولَ اللَّهِ؟))، قال: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فإنّهُ مَن يَعِشْ مِنكُم يَرَ اخْتِلافًا كَثِيرًا، وإيَّاكُمْ ومُحدَثَاتِ الأمُورِ فإنَّهَا ضَلالَةٌ، فَمَنْ أدْرَكَ ذَلِكَ مِنكُم فَعَلَيهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيهَا بِالنَّوَاجِذِ»[1].

وبعد هذا نصل إلى الوقوف عند بعض مظاهر مراعاة مقتضى الحال في حديث الرسول ρ وكلامه:

(١) سنن الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ في السنة واجتناب البدع، وسنن أبي داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، وسنن ابن ماجة: المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، ومسند أحمد ٣٧٥/٢٨، واللفظ للترمذي.

الإيـجـاز والإطنــاب:

مبحث "الإيجاز والإطناب والمساواة" أحد مباحث علم المعاني الرئيسة التي تناولها البلاغيون في مؤلَّفاتهم. ويمكن تعريف الإطناب بناء على ما ذكروه بـ" تأدية المراد بألفاظ زائدةٍ على أصل المعنى لفائدة معنوية"(١)، وقد ذكروا له صورًا عديدة؛ كالإيضاح بعد الإبهام، وذكر الخاص بعد العام، والتكرير، والإيغال، والتذييل، والتكميل، والتتميم، والاعتراض، وغير ذلك(٢)؛ فلا يُحكم على الكلام بالإطناب لمجرّد زيادة عدد جمله، أو زيادة ما يستغرقه من وقت؛ إذْ قد يكون ذلك من التطويل المعيب، وحسبك كثير مما يُسمع اليوم، والله المستعان!

ويمكن تعريف الإيجاز بأنه: "تأدية المراد بألفاظ ناقصةٍ عن أصل المعنى، وافيةٍ بدلالته"(٣)، ((ويعني ذلك تكثيف اللفظ وتركيزه على نحو تخرج فيه العبارة مُثقلةً بالدلالة، مُشبعةً بالمعنى))(٤). وله نوعان(٥):

١- إيجاز القِصَر: ويسمونه "إيجاز البلاغة"، ويتحقق بأداء المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة دون حذف، كقوله I: ﴿ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقوله: ﴿□ □ □ □ □ ﭲ □ □﴾ [الأعراف: ١٩٩].

٢- إيجاز الحذف: ويتحقق بأداء المعنى مع حذف شيء من التركيب تدلّ عليه قرينة، كقوله Y: ﴿□ □﴾ [يوسف: ٨٢]؛ أي: أهل القرية، وقوله: ﴿□ □ ﯭ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، أي: منافع ظهورها.

---

(١) ينظر: بغية الإيضاح ١١٢/٢.

(٢) ينظر: تلخيص المفتاح ٢٢١، وبغية الإيضاح ١٣٣/٢.

(٣) ينظر: بغية الإيضاح ١١٢/٢.

(٤) المفصّل في علوم البلاغة العربية ٣٢١.

(٥) ينظر: الصناعتين ١٧٥، وتلخيص المفتاح ٢١٤، وبغية الإيضاح ١١٨/٢.

ويجدر التأكيد على أنّ الإيجاز والإطناب لا يعنيان مجرّد قِصر الكلام أو طوله؛ فمجرّد ذلك صورة من صور العِيّ والابتذال. ولذا أشار الخطيب إلى ما يعيب الاختصار أو الإطالة؛ كالإخلال، أو التطويل والحشو؛ فالإخلال يكون اللفظ فيه قاصرًا عن أداء المعنى، والتطويل يعني أنْ يطول الكلام بلا فائدة زائدة، والحشو ما زاد في الكلام من غير فائدة يدل عليها(١). وقال أبو هلال العسكري: ((الإيجاز قصور البلاغة على الحقيقة، وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فَضْلٌ داخل في باب الهذَر والخطَل، وهما من أعظم أدواء الكلام، وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصناعة))(٢). بل علّق ابن حجة الحموي البلاغة بذلك، فعرَّفها بـ "بلوغ المتكلم كُنْهَ مراده، مع إيجاز بلا إخلال، وإطالة من غير إملال(٣).

واحتفى العرب بالإيجاز كثيرًا؛ لأنه أقرب إلى فِطَرِهم وطبيعة حياتهم وبيئتهم، حتى عدّه بعضُهم البلاغةَ ذاتَها، وحثُّوا عليه، وعلموا أنّ الكلام الموجز أوقعُ في الصدور، وأوْلَجُ في الآذان، وأعلقُ بالأفواه، وأجمعُ للمعاني، وأقوالهم في هذا كثيرة(٤).

وقد ثبت في سنّته الصحيحة ترغيبُه في الإيجاز والتقليل من الكلام، ومن ذلك أنه كان يتخوَّل أصحابَه رضوان الله عليهم بالموعظة؛ مخافة السآمة والملل(٥). وعلم الصحابة ذلك منه ووعَوه، حتى إنّ عمار بن ياسر τ خطب يومًا فأوْجَزَ وأبْلَغَ، فلما

(١) ينظر: بغية الإيضاح ١١٢/٢.

(٢) الصناعتين ١٧٣.

(٣) ينظر: ثمرات الأوراق ٤١٦.

(٤) ينظر: البيان والتبيين ١٠٧/١، والصناعتين ١٧٤.

(٥) ينظر: صحيح البخاري: كتاب العلم، باب ما كان النبيّ ρ يتخوّلهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، وصحيح مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الاقتصاد في الموعظة.

نزل قيل له: ((يا أبا اليقظان، لقد أبلغتَ وأوْجَزتَ، فلو كنتَ تَنَفَّسْتَ[١]))، فقال: إني سمعتُ رسول الله ρ يقول: «إنّ طُولَ صَلاةِ الرَّجُلِ، وقِصَرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مِن فِقْهِهِ؛ فأَطِيلُوا الصَّلاةَ، واقْصُرُوا الخُطْبَةَ، وإنَّ مِنَ البَيَانِ سِحْرًا»[٢]. ولن يغيب عن ذهن قارئ هذا الحديث دلالةُ ختمه بقوله «إنَّ مِنَ البَيَانِ سِحْرًا» على أنّ سحر البيان قد يكون أظهرَ مع قِصَره، وهذا ملمحٌ رائق جميل[٣].

فإذا ما نظرنا في كلامه υ وجدنا هذا الإيجاز قد جاء بصورة خاصة عنده ρ، فلم يكن كإيجاز غيره من البشر، حيث تجلّى بخاصية يطلق عليها "جوامع الكلم"، وهي إحدى الخصائص التي خُصّ بها الرسول ρ. فقد جاء في أحاديث صحيحة أنه قال: «أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ»[٤]. ومن وصف هند بن هالة τ لكلامه υ أنه ((يتكلم بجوامع الكلم، فَصْلاً؛ لا فُضُولَ، ولا تقصير))[٥]. ((وليس للإيجاز

(١) ((أي: أطلتَ الكلامَ شيئًا ووسَّعته، يقال: "نفّس الله في مدته"؛ أي: أطالها)). (إكمال المعلم ٢٧٢/٣)

(٢) صحيح مسلم: كتاب الجمعة، باب صلاة الجمعة وخطبتها.

(٣) أوردَ الزمخشري في الفائق ١٢٥/١ أثرًا، نصُّه: «نَحنُ مَعَاشِرَ الأنْبِيَاءِ فِينا بَكْءٌ»، وشرحه بقوله: ((أي: قلة كلام، مثل: بَكْء الناقة أو الشاة، وهو قلّة لبنها، يقال: "بَكَأَتْ وَكُؤَتْ بُكَاء وبَكْأً وبُكُوءًا، فهي بَكِئٌ وبَكِيئَةٌ))، ولم أقف على هذا الأثر في شيء من كتب الحديث؛ ولذا لم أطمئنّ إلى إيراده في المتن، لكنه دالٌ على إدراكٍ بغلبة الإيجاز على منطقه وبيانه ρ.

(٤) صحيح البخاري: كتاب الجهاد، باب قول النبيّ ρ: «نُصِرتُ بالرعب مسيرةَ شهر»، وصحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، واللفظ لمسلم.

(٥) غريب الحديث لابن قتيبة ٤٨٨/١، والفائق في غريب الحديث ٢٢٧/٢، ومنال الطالب ١٩٨، ١٩٨، ومختصر الشمائل المحمدية ٢٠، وضعَّف الألبانيُّ رحمه الله إسنادَه.

للإيجاز تعريفٌ أجلُّ من كلمة "جوامع الكلم"، و"جوامع" جمع "جامعة"، والكلمة الجامعة هي الضالّة التي يبحث عنها كل عليم اللسان))[1].

ووجه كونها خاصيّةً خُصَّ بها من العليم الحكيم I ((أنَّ اجتماعَ الكلام، وقلةَ ألفاظه، مع اتساع معناه، وإحكامِ أسلوبه، في غير تعقيد ولا تكلُّف، ومع إبانة المعنى واستغراق أجزائه، وأن يكون ذلك عادة وخلقًا يجري عليه الكلام في معنى معنى، وفي باب باب .شيءٌ لم يُعرف في هذه اللغة لغيره ρ؛ لأنه في ظاهر العادة يستهلك الكلام، ويستولي عليه بالكلف، ولا يكون أكثر ما يكون إلا باستكراه وتعمُّل؛ كما يشهد به العيان والأثر، فكان تيسير ذلك للنبي ρ، واستجابتُه على ما يريد، وعلى النحو الذي خرج به .نوعًا من الخصائص التي انفرد بها دون الفصحاء والبلغاء، وذهب بمحاسنها في العرب جميعًا))[2].

فلقد كان إيجازه ρ إيجازًا تجاوز المعهود والمألوف عند العرب؛ إذْ كانت الجملة عنده مركّزة بصورة شديدة تستوعب كثيرًا من المعاني، وتُستنبط منها الكثير من الأحكام والدّلالات، بل قد يكون فيها علومٌ وافية، مع ما فيها وما بُنيت عليه من بلاغة وحُسن بيان[3]. وهذه السِّمَة تقتضي مَلَكَةً راسخةً في البلاغة، وإحاطةً واسعةً باللغة، وقدرةً تامّةً على التصرّف في مناحي القول وفصوله ومقاماته، وخبرةً كاملةً بمصالح الكلام ومفاسده. يقول الجاحظ عن حديثه ρ: ((وهو الكلام الذي قلّ عدد

(١) دلالات التراكيب ب.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣٠٠.

(٣) ينظر: شرح صحيح مسلم ١٣/١٧٠.

حروفه، وكثر عدد معانيه ... لم تسقط له كلمةٌ، ولا زلَّت به قدمٌ، ولا بارت له حجَّةٌ، ولم يقُم له خصمٌ، ولا أفحمه خطيبٌ، بل يَبُذُّ الخطبَ الطوالَ بالكلم القِصَار))[١].

ومن أبرز خصائص الإيجاز في كلام المصطفى ρ ((الاستيفاءُ، الذي يخرج به الكلام . على حذف فضوله وإحكامه ووجازَته . مبسوطَ المعنى بأجزائه، ليس فيها خَدَاج، ولا إحالة، ولا اضطراب، حتى كأنّ تلك الألفاظ القليلة إنما رُكِّبت تركيبًا على وجهٍ تقتضيه طبيعة المعنى في نفسه، وطبيعته في النفس، فمتى وعاها السامع واستوعبها القارئ، تمثَّل المعنى وأتمه في نفسه، في حسب ذلك التركيب، فوقع إليه تامًّا مبسوطَ الأجزاء، وأصاب هو من الكلام معنى جمومًا لا ينقطع به، ولا يكبو دون الغاية، كأنما هذا الكلام قد انقلب في نفسه إحساسًا لنظر معنوي))[٢].

كما أنّ مما يتميّز به إيجازه بُعدُه عن التكلّف، يخرج من فطرة عربية سليمة، ولقد كان ((سجيَّةً للنبي ρ يَصدُر عنها في حديثه كله؛ طويلِه وقصيرِه ... إنّ تاريخ القول عرف نماذج من الإيجاز في الجاهلية وصدر الإسلام وفي العصور التي تلتها، ولكنها قلما كانت تخلو من التكلّف، ومن أجل ذلك فقد تجرّدت من القوة في السبك، والجمال في التعبير، والصدق في البيان، وهذا ما يجعل الإيجاز في كلام النبيّ ρ فذًّا قليل النظير في كلام البشر))[٣].

وتأمّل هذه الرواية للحديث التي فيها مثال على جوامع كلمه υ، وفيها تصريح من الراوي بإدراك تفرّده، فعن أبي بردة عن أبيه قال: بعثني رسول الله ρ ومعاذًا إلى اليمن، فقال: «ادعُوَا الناس، وبشِّرا ولا تنفِّرا، ويسِّرا ولا تعسِّرا»، قال: فقلت: يا رسول

(١) البيان والتبيين ١٧/٢.
(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣٣٩.
(٣) الحديث النبوي ٩١-٩٢.

الله، أفتنا في شَرَابين كنا نصنعهما باليمن، البِتْعُ وهو من العسل يُنْبَذُ حتى يشتد، والمِزْرُ وهو من الذرة والشعير يُنْبَذُ حتى يشتدّ، قال: وكان رسول الله ρ قد أعطي جوامع الكلم بخواتمه، فقال: «أنهى عن كل مسكر أسكر عن الصلاة»[(١)]. قال الإمام النووي في شرحه لقول الراوي: "أعطي جوامع الكلم بخواتمه": ((أي: إيجاز اللفظ مع تناوله المعاني الكثيرة جدًّا، وقوله: "بخواتمه" أي: كأنه يختم على المعاني الكثيرة التي تضمنها اللفظ اليسير، فلا يخرج منها شيء عن طالبه ومستنبطه لعذوبة لفظه وجزالته))[(٢)].

ومن إيجازه υ: حديثُ سفيان بن عبد الله الثقفيِّ τ قال: ((يا رسول الله، قلْ لي في الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحدًا بعدك))، قال: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، فَاسْتَقِمْ»[(٣)]. وفي رواية أخرى: ((يا رسول الله، حدِّثْني بأمرٍ أعتصمُ به))، قال: «قُلْ: رَبِّيَ اللهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ». قلت: ((يا رسول الله، ما أخوفُ ما تخافُ عليّ؟))، فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: «هَذَا»[(٤)]. فجاء الإيجاز هنا لما تحمله لفظة الاستقامة من آفاق واسعة للعمل الصالح، وجاءت الإشارة إلى خطر اللسان بإشارة واحدة من الرسول الكريم إلى لسانه.

قال القاضي عِيَاض رحمه اللَّه: ((هذا من جوامِع كلمه ρ، وهو مطابق لقوله تعالى: ٱ لم لى لي □ □ □ ٱ [فصلت: ٣٠]، أيْ: وحَّدُوا اللَّه, وآمنُوا به, ثمّ استقامُوا فلمْ

(١) صحيح مسلم: كتاب الأشربة.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٧٠/١٣.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام.

(٤) سنن الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان، وسنن ابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة.

يحِيدُوا عن توْحيدهم, ولا أشركوا به غيرَه، والتزمُوا طاعته إلى أنْ تُوُفُّوا على ذلك))[١]. والاستقامة ((درجةٌ بها كمالُ الأمور وتمامها, وبوجودها حصول الخيرات ونظامها, ومنْ لَمْ يَكُنْ مُستقيمًا في حالته ضاع سعيه وخابَ جَهْده. قال: وقيل: الاستقامة لا يُطِيقهَا إلا الأكَابِر؛ لأَنَّهَا الخروج عن المعهودات، ومُفارقة الرُّسُوم والعادات, والقيام بيْن يَدِي الله تعالى على حقيقة الصِّدْق))[٢].

وحين دارت رحى الحرب في غزوة حُنين واشتدَّت، وكان رسول الله ρ على بغلته، كالمتطاول إلى القتال، فقال: «هَذَا حِينَ حَمِيَ الوَطِيسُ»[٣]. والوطيس هو التنّور أو شِبْهُه مما يُخبز فيه؛ فاستعارَهُ النبيّ υ لشدّة الحرب التي يشبه حرُّها حرَّه، وصار يُضرب مثلاً للأمر إذا اشتدّ[٤]، قال النوويّ: ((قالوا: وهذه اللفظة من فصيح الكلام وبديعه الذي لم يُسمع من أحد قبل النبيّ ρ))[٥]، وقال الرافعيّ: ((فمهما كانت صفةُ الحرب؛ فإنّ هذه الكلمة بكل ما يقال في صفتها، وكأنما هي نار مشبوبة من البلاغة تأكل الكلام أكلاً، وكأنما هي تمثّل لك دماء نارية أو نارًا دمويَّة!))[٦].

وفي حديث حذيفة τ المشهور عن الخير والشرّ وَصَفَ زمانًا يأتي بعدهم تكون العصمة فيه بالسيف، ثم يأتي بعده زمان يكون فيه: «هُدْنَةٌ عَلَى دَخَنٍ، وجَمَاعَةٌ

(١) إكمال المعلم ٢٧٥/١.
(٢) شرح صحيح مسلم ٩/٢.
(٣) صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين.
(٤) ينظر: الزاهر في معاني كلمات الناس ٩٦/٢.
(٥) شرح صحيح مسلم ١١٦/١٢.
(٦) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣٢٩.

على أَقْذَاءٍ»[1]. والمعنى: صُلحٌ على ضغائن وأحقاد، وبقية من الناس على فساد قلوب؛ فشبّه ما في قلوبهم من الحقد والضغينة بدخان الحطب الرطب، وشبّه الفساد بما يقع في العين والشراب من غبار ووسخ، والمعنى: يكون صلحٌ في الظاهر مع خيانة القلوب وخداعِها[2].

وقد أبان الرافعيّ رحمه الله عمّا في عبارة "هُدنة على دَخن" من معانٍ ودلالات، فقال: ((هذه العبارة لا يَعدِلها كلامٌ في معناها، فإن فيها لونًا من التصوير البياني لو أذيبت له اللغة كلها ما وفَتْ به؛ وذلك أنّ الصلح إنما يكون موادَعَةً ولِينًا، وانصرافًا عن الحرب، وكفًّا عن الأذى، وهذه كلها من عواطف القلوب الرحيمة، فإذا بُني الصلح على فساد، وكان لعلةٍ من العلل، غلب ذلك على القلوب فأفسدها، حتى لا يسترِحْ غيرُه من أفعالها، كما يغلب الدخن على الطعام، فلا يجد آكلُه إلا رائحةَ هذا الدخانِ، والطعامُ من بعد ذلكم مشوبٌ مفسد؛ فهذا في تصوير معنى الفساد الذي تنطوي عليه القلوب الواغرة. وثَمَّ لونٌ آخر في صفة هذا المعنى، وهو اللون المظلم الذي تنصبغ به النية "السوداء"، وقد أظهرته في تصوير الكلام لفظة "الدخن". ثُمَّ معنى ثالث، وهو النكتة التي من أجلها اختيرت هذه اللفظة بعينها، وكانت سر البيان في العبارة كلها، وبها فَضُلَت كلَّ عبارة تكون في هذا المعنى، وذلك أنّ الصلح لا يكون إلا أن تُطفأ الحرب، فهذه حربٌ قد طُفئت نارُها بما سوف يكون فيها نارًا[3] أخرى، كما يُلقى الحطبُ الرَّطبُ على النار تخبو به قليلاً، ثم يستوقِد فيستعر فإذا هي نار تلظّى، وما كان فوقه الدخان فإن النار ولا جَرم من تحته. وهذا كله تصوير

(١) سنن أبي داود: كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها.

(٢) ينظر: عون المعبود ١١/ ٢١٢.

(٣) هكذا جاءت منصوبة، ولعل الصواب "نارٌ أخرى".

لدقائق المعنى كما ترى، حتى ليس في الهدنة التي تلك صفتها معنى من المعاني يمكن أن يُتصور في العقل إلا وجدتَ اللونَ البياني يصوِّره في تلك اللفظة؛ لفظة "الدَخَن"»[١].

وفي التحذير من آفتين عظيمتي الأثر في المجتمع المسلم قال υ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَومَ القِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَن كَانَ قَبلَكُمْ، حَمَلَهُم عَلَى أنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُم وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُم»[٢]. فأوجز بهذا البيان حياة الظالم في الدنيا والآخرة، ودلَّ على سبب المرض وأعراضه، ونتيجته وأخطاره. فابتدأ بالتحذير من الظلم بعبارة قوية حاسمة "اتقوا الظلم"، وإنما التقديم يكون لما تكون العناية به، ثم ثنّى بمآل الظالم يوم القيامة بكلمات من جنس الظلم؛ ليدل على أنّ الظلم يشترك مع الظلمات في الهيئة والشكل، وأنّ الظالم وإنْ أذاق غيره القهر والأسى والألم في الدنيا فسيذوقه يوم القيامة جزاء وفاقًا، وفي إفراد "الظلم" وجمع "الظلمات" إشارة إلى أنّ جنسه واحد، لكنّ المظالم متعدّدة، والحساب يكون على كل مظلمة. وبعد ذلك حذّر من الشحّ، ومرشدًا إلى أنّ الشحّ الدالّ على شديد الطمع والحرص هو سبب الاعتداء والبغي والظلم، وأنه سبب هلاك الأمم السابقة. فتأمّل كيف حوى هذا البيانُ الموجز مسيرةَ حياة الظالم، وهلاك الأمم السابقة، بأوجز عبارة، وأبهى بيان.

وفي قوله ρ: «المرء مع من أحبّ»[٣]، إيجازٌ تُطوى فيه صفحات وصفحات؛ إذْ هو إيجازٌ لمنهج الحياة، وهو غير بعيد عن معنى "آمنْ بالله، ثم استقمْ"؛ لأنّه يحثّ

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣٢٩.

(٢) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرجل "ويلك"، وصحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب.

على أن يهذّب المرء نفسه، ويعوّدها على محبة أهل الصلاح، وأهل الفضل، والتعلّق بهم وبصفاتهم وأخلاقهم، وحين يحبّهم محبة صادقة سيقتدي بهم، وحينذاك سيلحق بهم في مراتبهم ودرجاتهم في الجنة، وما أُتيت الناشئة في أخلاقها إلا حين عُلِّقت نفوسهم بمن ليسوا أهلاً لذلك.

ومن أمثلة جوامع كلمه الدالة على علوّ مقامه في البلاغة(١): قوله ρ: «إنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُم أَخْلاقًا»(٢)، وقوله: «لا يُلْدَغُ المؤمِنُ مِن جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ»(٣)، وقوله: «الْمُؤمِنُونَ تَتَكَافَؤُ دِمَاؤُهُم، وَيَسعَى بِذِمَّتِهِم أدنَاهُم، وَهُم يَدٌ عَلَى مَن سِوَاهُم»(٤)، وقوله: «لا يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ»(٥)، وقوله: «المستشار مؤتمن»(٦)، وقوله:

(١) الشواهد على هذا الباب كثيرة جدًا، لكني اكتفيت منها بما يدلّ على المراد من صحيح الأخبار، وطرحتُ الضعيف والموضوع، وجُلّ ما اخترته وأوردته مما ذكره المتقدّمون في هذا الباب كالجاحظ والقاضي عياض وغيرهما؛ حرصًا على تبيين ما صحَّ من ذلك.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب حُسن الخلق والسخاء، وصحيح مسلم: كتاب الفضائل.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين، وصحيح مسلم: كتاب الزهد، باب في أحاديث متفرّقة.

(٤) سنن أبي داود: كتاب الديات، باب أيقاد المسلم بالكافر؟، وسنن النسائي: كتاب القسامة، باب القود بين الأحرار والمماليك في النفس، ومسند الإمام أحمد ٢٦٧/٢.

(٥) صحيح البخاري: كتاب الطب، باب لا هامة، وصحيح مسلم: كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، واللفظ للبخاري. الممرِض: الذي له إبل مرضى، والمصِحّ: الذي له إبل صحاح؛ نهى صاحب الإبل المريضة أنْ يوردَها على الإبل الصحيحة. (ينظر: فتح الباري ٢٤٢/١٠)

(٦) سنن الترمذي: كتاب الأدب، باب إن المستشار مؤتمن، وسنن أبي داود: كتاب الأدب، باب في المشورة.

«الدِّينُ النَّصِيحَةُ»(١)، وقوله في معنى الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(٢). وقوله ρ: «الصَّبرُ عِندَ الصَّدْمَةِ الأُولَى»(٣).

وهذه الفرائد الموجزة برئت من كل عيب، وسلمت من التعقيد أو المجاز البعيد، ونأت عن ضروب الغرابة والإحالة وفساد التركيب؛ ((لصدورها عمّن اجتمع له من قوة الطبع، وصفاء الحس، ومحض السليقة، وثقوب الذهن، وتمكّن اللسان، ومؤازرة الوحي؛ ما مكّنه من الاقتدار على الاقتضاب والتجوّز وسلوك المذاهب البيانية))(٤).

لكنّ بلاغة الإيجاز والإطناب تكمن في استعمال كل منهما في موضعه المناسب له، وللكلام مقاماتٌ لابدّ .كما أسلفتُ. أن يراعيَها المتحدِّثُ البليغُ، وأن يُحسنَ اختيارَ ما يناسبها؛ فقد يكون الإيجاز مُخِلاً بمقصد الكلام في موضع، وقد يكون الإطناب كذلك؛ ((فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه، فمَن أزال التدبير في ذلك عن جهته، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب . أخطأ))(٥). ومدَحَ الجاحظُ كلامَ النبيّ ρ بأنه ((استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصورَ في موضع القصر))(٦).

---

(١)صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبيّ ρ، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، واللفظ للبخاري.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، وصحيح مسلم: كتاب الجنائز، باب الصبر عند الصدمة الأولى.

(٤) الخصائص الفنية في الأدب النبوي ٢١٩.

(٥) كتاب الصناعتين ١٩٠.

(٦) البيان والتبيين ١٧/٢.

بَيدَ أنّ الإقلال والقِصِر في كلامه υ كان الأعمَّ الأغلبَ، بل إنّ كلامه ρ فيما حُفِظ ونُقل من خُطبه الطِّوال لا يفارق الإيجاز؛ إذْ الإيجاز سِمة ملازمة لجملها(١). ولعلّ مردّ غلبة الإيجاز: ميلُ العرب بطبيعتهم وطبيعة فصاحتهم وبلاغتهم إليه، إضافة إلى أنه مبلِّغٌ عن ربّه، والكلام الموجز أيسرُ حفظًا وأدقُّ فَهْمًا.

وقد كان υ يُطيل إذا استدعى المقامُ ذلك، حدَّث حُذيفة بن اليمان τ فقال: ((لقد خَطَبنا النبيّ ρ خُطبَةً، ما ترك فيها شيئًا إلى قيام الساعة إلا ذكره، عَلِمَه مَن عَلِمَه وجَهِلَه مَن جَهِلَه، إنْ كنتُ لأرى الشيء قد نسيتُ، فأعرفه كما يعرف الرجلُ الرجلَ إذا غاب عنه فرآه فعرَفَه))(٢). والخطبة وإنْ لم ينقلها الراوي τ بألفاظها، لكن دلّت عبارته على ما فيها من طول غير معهود، وأنّ النبيّ υ لم يترك شيئًا إلى قيام الساعة إلا ذكره، مما يدلّ على كثرة موضوعاتها وأخبارها، وقد بلغ من طولها أنّ حفظها صعُب على الصحابة، فتفاوتوا في مقدار ما حفظوه منها. إنّ المقام مقام تفصيل وبيان، وإنذار وإعلام؛ إنه توضيح لأحداث وأخبار عظام، لم يكن لغير النبيّ ρ أنْ يحيط بها ويعلمها؛ ولذا كان الإطناب فيها مما يفرضه مقتضى الحال. وغير خافٍ أنّ الحال المراعى هنا هو حال موضوع الخطبة وزمانها، وأمّا المخاطَبون فهم ليسوا بمقطوعي الصلة عن هذا الحال والمقام، لكنّ اتجاه النظر كان منصبًّا في الدرجة الأولى على ما ذكرتُ، والله أعلم.

---

(١) ينظر: الحديث النبوي ٩١.

(٢) صحيح البخاري: كتاب القدر، باب ❒◆📫☒🔔♌♦ 📖❒👌⬂❷⇖ ✂👓✏★ 🔔♦⑨⌂❻✡✂ً، وصحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، واللفظ للبخاري.

ومثل ذلك يُقال في حديث عمر بن الخطاب τ، حيث قال: ((قام فينا النبيّ ρ مقامًا، فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهلُ الجنّةَ منازلَهم، وأهلُ النار منازلَهم، حفظ ذلك مَن حفظه، ونسيه مَن نسيه))(١).

وفي الحديث الصحيح الآخر حدَّث عَمْرُو بنُ أخطَبَ τ فقال: ((صلّى بنا رسولُ الله ρ الفجر وصعد المنبر، فخطبَنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وما هو كائن، فأعْلَمُنا أحْفظُنا))(٢). وهذا الحديثُ وسرُّ الإطناب فيه ليس ببعيد عن سابقيه، وهو ـ من غير شكّ ـ يمثّل موقفًا غير معتاد؛ فلم تحفظ لنا السنَّةُ مقامًا، يتردّد فيه النبيّ على المنبر طَوالَ اليوم ـ من ظهور فجره حتى غروب شمسه ـ سوى هذا الحديث. وقد اجتهد المباركفوري رحمه الله في الجمع بين هذا الحديث وحديث جابر بن سمُرة τ: «كنتُ أصلّي مع رسول الله ρ، فكانت صلاتُه قصْدًا، وخُطبتُه قصْدًا»(٣)، فنقل عن القاري في "المرقاة" أنه ((لا تنافيَ بينهما؛ لورود ما في حديث أبي زيد نادرًا اقتضاه الوقت، ولكونه بيانًا للجواز، وكأنه كان واعظًا، والكلام في الخطب المتعارفة))(٤)، وهذا الكلام جيد فيما نحن فيه؛ إذْ فيه

---

(١) صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

(٢) صحيح مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، وسنن الترمذي: كتاب الجمعة، باب ما جاء في قصر الخطبة.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٤) تحفة الأحوذي ٣/٢١.

إلماحةٌ إلى أنّ هذه الإطالة خلافُ المعتاد منه، وأنها مما اقتضاه الوقت، وهذا في صُلب موضوعنا وحديثنا، ثم إنّ فيه إضافة مهمة، وهي أنّ الأمر بالتقصير متعلّق بالخطب المفروضة، وأمّا مقامات الوعظ فيُغتفر في الإطالة فيها ما لا يغتفر في تلك.

ولعلّ هذه الخطبة كانت في أواخر مراحل عمره υ، فكان اتصالها وامتدادها حرصًا منه على اغتنام الوقت لإرشاد الأمّة، ويكون مثلُ ذلك الفعلِ أليقَ بحاله؛ إذْ مقام المتكلّم هو أحدُ ما يُراعى في الكلام، كقوله تعالى حكاية عن امرأة عمران: ﴿ ﴾ [آل عمران: ٣٦]؛ فكان التأكيدُ أنسبَ لحالها الذي كانت تتطلّع فيه نفسُها بشوق ولهفة إلى ابنٍ ذكرٍ. ولم أجدْ فيما وقفتُ عليه من شروح هذا الحديث التفاتةً إلى هذا الجانب، لكن لعلّ من القرائن التي تؤيّد ما ذكرتُ أنّ عمرَو بنَ أخطب راويَ الحديث τ أنصاريٌّ خزْرجيٌّ عُمّر مئةَ عام، ومات في خلافة الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان(١)، وهذا يدلّ على أنّ الخطبة كانت في المدينة، وأنّ عَمْرًا توفي بعد الرسول ρ.

ومما يدلّ على أنّ طول الخُطبة أو قِصرَها مما تستلزمه مراعاة مقتضى الحال ما ورد من خُطبه ρ القصيرة، التي لم ينصَّ الراوي فيها على طول ظاهر، وكان نصُّها الواردُ قصيرًا موجزًا. ومن ذلك: الخطبة التي رواها أبو سعيد الخدريّ τ وقد قال فيها υ: «لاَ وَاللهِ! مَا أَخْشَى عَلَيكُم أَيُّهَا النَّاسُ إلا مَا يُخْرِجُ اللهُ لَكُم مِن زَهْرَةِ الدُّنْيَا. إنَّ الخَيرَ لاَ يَأتِي إلا بِخَيرٍ، أَوَ خَيْرٌ هُوَ؟! إنَّ كُلَّ مَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقتُلُ حَبَطًا أو يُلِمُّ إلا آكِلَةَ الخَضِرِ، أَكَلَتْ حَتَّى إذَا امْتَلأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسَ، ثَلَطَتْ أو بَالَتْ، ثُم اجْتَرَّتْ، فَعَادَتْ فَأَكَلَتْ. فَمَن يَأخُذُ مَالاً بِحَقِّهِ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَمَن يَأخُذُ مَالاً بِغَيرِ حَقِّهِ

(١) سير أعلام النبلاء ٣/٤٧٣.

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الذِي يَأكُلُ وَلا يَشْبَعُ»[1]. فهذه خطبة قصيرة، خطبها الرسول ρ في موضوع محدَّد، هو تحذير الناس من الاغترار بالدنيا وزينتها والافتتان بها، أو أكل مال الناس بالباطل، وضرب فيها المثل على ذلك. وشتَّان بين موضوعها وموضوع الخطب التي ذكرتُ قبلها؛ فتلك خطب قدَّم فيها النبيّ ρ بيانًا شاملاً، وعرض فيها موضوعات ممتدّةً زمانًا، ومتعدّدة وجوهًا.

وحين خَطب υ يومَ فتح مكّة قال: «لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، ألاَ إنَّ كُلَّ مَأْثُرَةٍ تُعَدُّ وَتُدْعَى، وَدَمٍ وَمَالٍ، تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، إلاّ سِدَانَةَ البَيتِ، أو سِقَايَةَ الحَاجِّ، ألاَ وَإنَّ قَتِيلَ خَطَأِ العَمْدِ، قَتِيلَ السَّوطِ وَالعَصَا، مِئَةٌ مِنَ الإبِلِ، مِنهَا أرْبَعُونَ في بُطُونِهَا أولادُهَا»[2]. فهذا مقام اختصر فيه ρ وأوجز؛ إذْ مثله مقامٌ حريٌّ بالبليغ فيه أنْ يوجز؛ فقد تمّ الفتح، لكنّ الأمور لم تستقر ولم تستقم، فاحتاج أنْ يضع اللبنات الأولى، وينبّه إلى ما تشتد حاجة الناس إليه في مثل هذا المقام، فجاء الخطاب متعلّقًا بما يناسب المكان والحال، فأكّد على السدانة والسقاية، ولكون الحال جديدًا، وقد تغيّرت موازين القوى، احتاج الناس إلى بيان يدلهم على حكم ما قد يحصل من قتل غير متعمّد.

وحين نمضي في تتبُّع السنة النبوية الشريفة فإننا نجد الإيجاز والإطناب فيها، وقد نجد لذلك مظاهر عامة، يمكن القياس عليها والإفادة منها. فمن المقامات التي راعاها النبيّ ρ فأوجز العبارة: مقام المرض والمصيبة؛ فإنّ نفس المريض ونفس

(١) صحيح البخاري: كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى، وصحيح مسلم: كتاب الزكاة، باب تخوّف ما يخرج من زهرة الدنيا، واللفظ له.

(٢) مسند أحمد ٤٧٨/٣٨.

المصاب بمصيبة لا تتسع لكلام أو وعْظ طويل(١). كالذي ثبت من حديث عائشة رضي الله عنها أنه كان إذا عادَ مريضًا يقول: «أذْهِبِ البَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وأنتَ الشَّافي، لا شِفَاءَ إلا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا»(٢). وكقوله لابنته زينب رضي الله عنها لما توفي ابن لها: «إنَّ للهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أعْطَى، وَكُلٌّ عِندَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ»(٣). وكقوله لامرأة رآها تبكي ولدَها عند قبره: «اتَّقِي اللهَ واصْبِرِي»(٤).

وليس من هذا الباب إطنابه في مقام بيان فضل الجهاد ومكانة الشهيد؛ لأنه في مقام الحث والترغيب عليه، وهو مقام يطيب فيه الإطناب ويحسن. مثاله حديث أبي هريرة τ قال: قال رسول الله ρ: «تَضَمَّنَ اللهُ لِمَن خَرَجَ في سَبِيلِهِ، لا يُخْرِجُهُ إلا جِهَادًا في سَبيلي، وإيمانًا بي، وتَصدِيقًا بِرُسُلِي، فَهوَ عَليَّ ضَامِنٌ أنْ أُدْخِلَهُ الجنَّةَ، أو أُرْجِعَهُ إلى مَسْكَنِهِ الذي خَرَجَ مِنهُ، نَائلاً مَا نَالَ مِن أجْرٍ أو غَنِيمَةٍ. والَّذِي نَفْسُ محمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِن كَلْمٍ يُكْلَمُ في سبيلِ اللهِ إلا جَاءَ يَومَ القِيَامَةِ كَهَيئَتِهِ حِينَ كُلِمَ؛ لَونُهُ لَونُ دَمٍ، وريْحُهُ مِسْكٌ. والَّذِي نَفْسُ محمَّدٍ بِيَدِهِ لَولا أنْ يَشُقَّ عَلَى المسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو في سَبِيلِ اللهِ أبدًا، وَلَكِنْ لا أجِدُ سَعَةً فَأحْمِلُهُم، ولا يَجِدُونَ سَعَةً وَيَشُقُّ عليهم أنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي. والَّذِي نَفْسُ محمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أني أغزُو في سَبيلِ اللهِ فأُقْتَلُ،

---

(١) رعاية حال المخاطب ٤٧٩.

(٢) صحيح البخاري: كتاب المرضى، باب دعاء العائد للمريض، وصحيح مسلم: كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض، واللفظ للبخاري.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبيّ ρ: «يُعَذَّبُ الميِّتُ ببعض بُكاء أهله عليه»، وصحيح مسلم: كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، واللفظ للبخاري.

(٤) صحيح البخاري: كتاب الجنائز، باب قول الرجل للمرأة عند القبر: "اصبري"، وصحيح مسلم: كتاب الجنائز، باب الصبر عند الصدمة الأولى.

ثم أغزُو فَأُقْتَلُ، ثم أغْزُو فأُقْتَلُ»[1]. وقد أطنب في هذا الحديث لأنه حديث عن الجهاد، الذي هو مظنة الهلاك، فاحتاج المخاطبون إلى تأكيد المعنى بطرق مختلفة وعبارات متفاوتة، حتى يكون رسوخ الموضوع في نفوسهم رسوخًا جليًّا واضحًا لا لبس فيه ولا غموض، وبحيث يكون الموضوع واضحًا للمسلمين من جميع وجوهه، جليًّا لا يقبل تأويلاً في أيّ زمان ومكان.

وقد يطنب في مقام التعليم وتصحيح الخطأ، كما في حديث جابر τ قال: ((اشتكى رسول الله ρ، فصلينا وراءه وهو قاعد، وأبو بكر يُسمع الناسَ تكبيرَه، فالتفت إلينا، فرآنا قيامًا، فأشار إلينا، فقعدنا، فصلينا بصلاته قعودًا))، فلما سلّم قال: «إنْ كِدْتُمْ آنِفًا لَتَفعلونَ فِعْلَ فارسَ والرّومِ؛ يَقُومُونَ على مُلُوكِهِم وَهُم قُعُودٌ؛ فَلا تَفعَلُوا، ائتمُّوا بِأئمَّتِكُم، إنْ صَلَّى قَائمًا فَصَلُّوا قِيَامًا، وإنْ صَلَّى قَاعِدًا فَصَلُّوا قُعُودًا»[2].

ومما أطنب فيه خطبته في حجة الوداع، وهي مثال حيّ للعديد من صور الإطناب، وفيها: «إنَّ دِمَاءَكُم وأمْوَالَكُم حَرَامٌ عَلَيكُم، كَحُرْمَةِ يَومِكُم هَذَا، في شَهرِكُم هَذَا، في بَلَدِكُم هَذَا. ألاَ كُلُّ شَيْءٍ مِن أمْرِ الجاهِلِيَّةِ تَحتَ قَدَمَيَّ مَوضُوعٌ، ودِمَاءُ الجَاهِلِيَّةِ مَوضُوعَةٌ، وَإنَّ أوّلَ دَمٍ أَضَعُ مِن دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بنِ الحارِثِ، كَانَ مُسْتَرْضَعًا في بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيلٌ. ورِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوضُوعٌ، وَأوَّلُ رِبًا أضَعُ رِبَانَا؛ رِبَا عَبَّاسِ بنِ عَبدِالمطَّلِبِ فَإنَّهُ مَوضُوعٌ كُلُّهُ. فَاتَّقُوا اللهَ في النِّسَاءِ، فَإنَّكُم أخَذْتُمُوهُنَّ بِأمَانِ اللهِ، واسْتَحْلَلْتُم فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ، وَلَكُم عَلَيهِنَّ ألاَّ يُوطِئْنَ فُرُشَكُم أحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيكُم رِزْقُهُنَّ وكِسْوَتُهُنَّ بِالمعْرُوفِ. وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُم مَا لَن تَضِلُّوا بَعْدَهُ إنِ اعْتَصَمْتُم بِهِ: كِتَابَ اللهِ، وَأنتُم تُسْألُونَ عَنِّي؛ فَمَا أنتُم

(١) صحيح مسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الجهاد والخروج في سبيل الله تعالى.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الصلاة، باب ائتمام المأموم بالإمام.

قَائِلُونَ؟»، قالوا: ((نشهدُ أنكَ قد بلَّغْتَ، وأدَّيْتَ، ونصَحْتَ))، فقال بإصبعه السَّبَّابة يرفعها إلى السماء ويَنكُتُها إلى الناس: «اللهمَّ اشْهَدْ، اللهمَّ اشْهَدْ، اللهمَّ اشْهَدْ»(١).

لقد كان المقام مقامًا يستدعي هذا الإطناب؛ فكان اجتماع الناس كبيرًا، ولم يكن مثله قبله، ولعله علم أنه لن يلقى مثله أبدًا، فكانت أشبه بالوصايا الجامعة المودّعة؛ ولذا سُمّيت بحجة الوداع، كما أنّ المخاطَبين جاؤوا من بلاد شتى، وبقاع متفرّقة، وأحوالهم مختلفة، وأفهامهم متفاوتة؛ فكان الخطابُ معهم وفيهم خطابًا لابد فيه من استقصاء أسباب فهمهم وإدراكهم.

لكنّ حديثه ρ مع الطفل لم يأخذ وتيرة واحدة، أو نمطًا متماثلاً، ويظهر أنّ مراعاة طبيعة الطفل على وجه العموم ينازعها في الخطاب البليغ عمرُه، ومستوى فهمه، وطبيعةُ الموضوع، ولذا قد يحسن الإيجازُ في مواقف، ويحسن الإطناب في مواقف أخَرَ، ويكون كل منهما أنسبَ بحاله في تلك المواقف(٢). وهذا ما يمكن استنباطه من مخاطبته لطفلين:

الأول هو عُمرُ بن سلَمة τ، الذي أخبر أنه كان غلامًا في حَجْر رسول الله ρ، وكانت يده تطيش في الصَّحْفَة، فوجّهه υ بقوله: «يا غُلامُ، سَمِّ اللهَ، وكُلْ بِيَمِينِكَ، وكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»(٣)؛ فناسب الإيجازُ حالَ عمر هنا؛ لأنهم يأكلون، وهو بحاجة إلى خطاب موجز، يمكن له أن يفهمه ويدركه، ثم يطبّقه في حاله.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبيّ ρ.

(٢) هذا موضوع طريف يستحق مزيدًا من العناية المبنية على جمع النصوص وتحليلها، وهو مما يُرجى نفعه من الناحية التعليمية والتربوية.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، وصحيح مسلم: كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما.

وأمّا الثاني فهو عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، الذي خاطبه υ بقوله: «يَا غُلام، إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ. إذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ. واعْلَمْ أنَّ الأمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أنْ يَنفَعُوكَ بِشَيْءٍ لم يَنفَعُوكَ إلا بِشَيءٍ قَد كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لم يَضُرُّوكَ إلا بِشَيءٍ قَد كَتَبَهُ اللهُ عَلَيكَ، رُفِعَتِ الأقلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[١]. لقد كان المقام مقام تربية وتعليم، لم يرتبط بحادثة معينة، أو فعلٍ آنِيٍّ، وكان ابن عباس ذا فهم ووعي، فهو حَبرُ الأمة، وقد دعا له رسول الله ρ بالحكمة والعلم[٢]؛ فناسبَ الإطنابُ حاله ومقامه.

مخاطبة كلّ قوم بلغتهم:

كان υ يخاطب وفود العرب بلغاتهم التي قد لا يعرفها غيرهم، وهي خاصية من خصائص النبوّة[٣]، ويقول القاضي عياض: ((وعُلِّمَ ألسنةَ العرب؛ فكان يخاطب كلَّ أمَّةٍ منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويُباريها في منْزع بلاغتها، حتى كان كثيرٌ من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه، وتفسير قولِه. من تأمَّل حديثه وسيَرَه، علِم ذلك وتحقَّقَه، وليس كلامُه مع قريش والأنصار وأَهلِ الحجاز ونَجْدٍ ككلامه مع ذي المشعار الهمْدَانِيِّ، وطِهْفَةَ النَّهْدِيِّ، وقَطنِ بنِ حارثةَ العُلَيْمِيِّ،

(١) سنن الترمذي: كتاب صفة القيامة، ومسند أحمد ٤٠٩/٤.

(٢) ينظر: صحيح البخاري: كتاب العلم، باب قول النبيّ ρ: اللهم علّمه الكتاب، ومسند أحمد ٣٤٠/٣.

(٣) ينظر: الرسالة ٤٢.

والأَشْعَثِ بن قَيْسٍ، ووائلِ بنِ حُجْرٍ الكِنْدِيِّ، وغيرِهم من أَقيالِ حضْرموتَ ومُلُوكِ اليمن))(١).

وكلام الجاحظ في هذا فَصْلٌ وجَليٌّ: ((وكما لا ينبغي أنْ يكون اللفظ عاميًّا، وساقطًا سوقيًّا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبًا وحشيًّا، إلا أنْ يكون المتكلّم بدويًّا أعرابيًّا؛ فإنّ الوحشيَّ من الكلام يفهمه الوحشيُّ من الناس، كما يفهم السُّوقيُّ رِطَانةَ السُّوقيّ))(٢).

وهذا منهج يناسب حال الداعية الذي يكون البلاغ أولَ أولوياته، ويكون حاضرًا في كل عبارة أو مقام، وقد كان منهجًا نبويًّا، ومقصدًا شرعيًّا، جلاّه خير جلاء عليٌّ بن أبي طالب τ بقوله: ((حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبُّون أنْ يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُه؟!))(٣).

وقد حفلت السنة الصحيحة المطهّرة بأمثلة وشواهد على ذلك؛ فعن قتادة τ: أنّ أناسًا من عبدالقيس قدموا على رسول الله ρ، فقالوا: ((يا نبي الله! إنّا حيٌّ من ربيعة، وبيننا وبينك كفارُ مُضَرَ، ولا نقدر عليك إلا في أشهر الحُرُم، فمُرْنا بأمر نأمر به من وراءنا، وندخل به الجنة إذا نحن أخذنا به)). فقال رسول الله ρ: «آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ،

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٧٠/١. وقد نقل القاضي عياض طرفًا من هذه الآثار، إلا أني آثرت عدم إيرادها في هذا البحث لأني لم أقف عليها في كتب الحديث المعتبرة، والسنة النبوية من أولى ما يجب الاهتمامُ بصيانته والعناية به، وتركُ ما لم يثبت ويصحّ فيه، وفي السنة الصحيحة غناء وكفاية. ومن أراد الوقوف على تلك الكتب فينظر: غريب الحديث ٥٤٨/١، والفائق في غريب الحديث ١٤/١، و٢٦/٣، ٤٤٢، والشفا بتعريف حقوق المصطفى ٧١/١-٧٧، ومنال الطالب ٨، و٤٤، و٥٥، و٦٤.

(٢) البيان والتبيين ١٤٤/١.

(٣) صحيح البخاري: كتاب العلم، باب مَن خصَّ بالعلم قومًا دون قوم.

وأَنْهَاكُم عَن أَرْبَعٍ: اعْبُدُوا اللهَ ولا تُشركُوا بِهِ شَيئًا، وأَقِيمُوا الصَّلاةَ، وآتُوا الزكَاةَ، وصُومُوا رَمَضَانَ، وأعطُوا الخُمُسَ من الغَنَائم؛ وأَنْهَاكم عن أربعٍ: عَن الدُّبَّاءِ، والْحَنْتَمِ، والْمُزَفَّتِ، والنَّقِيرِ[1]». قالوا: ((يا نبي الله! ما عِلْمُك بالنقير؟))، قال: «بَلَى، جِذْعٌ تَنقُرُونَهُ، فَتَقْذِفُونَ فِيهِ مِنَ القُطَيعَاءِ، . قال سعيد: أو قال: من التمر . ثم تَصُبُّونَ فيه مِن الماءِ، حَتى إذَا سَكَنَ غَلَيَانُهُ شَرِبْتُمُوهُ، حَتى إنَّ أَحَدَكُم . أو أحدَهُم . لَيَضْرِبُ ابنَ عَمِّهِ بِالسَّيفِ ...»[2].

ومن ذلك: حديث أم خالد بنت خالد بن سعيد رضي الله عنهما قالت: أتيت رسول الله ρ مع أبي، وعليَّ قميصٌ أصفر، قال رسول الله ρ: «سَنَهْ سَنَهْ»، قال عبدالله: ((وهي بالحبشيّة: حَسَنة))، قالت: فذهبتُ ألعبُ بخاتم النبوّة، فزبرني أبي، قال رسول الله ρ: «دَعْهَا»، ثم قال رسول الله ρ: «أَبْلِي وَأَخْلِقِي، ثُمّ أَبْلِي وَأَخْلِقِي، ثُمّ أَبْلِي وَأَخْلِقِي»[3]. فأمّ خالد رضي الله عنها ((وُلدت بأرض الحبشة، وقدمت مع أبيها بعد خيبر وهي تعقل))[4]، فاختار النبيّ ρ أن يلاطفها بلغة أهل الحبشة؛ إذْ نشأت بين ظهرانيهم. وإضافة إلى ما في هذا الشاهد من دليل على اختياره من اللغات ما يناسب

(١) الدُّبَّاء هو الوعاء من القرع اليابس، والحنتم: جرار خُضْر، والمزفَّت: المطليّ بالقار؛ ولذا فهو بمعنى "الْمُقَيَّر" الذي جاء في رواية أخرى. قال الإمام النووي: ((وأمّا معنى النهي عن هذه الأربع فهو أنه نهى عن الانتباذ فيها، وهو أنْ يجعل في الماء حبات من تمر أو زبيب أو نحوهما ليحلو ويشرب، وإنما خُصَّت هذه بالنهي لأنه يسرع إليه الإسكار فيها، فيصير حرامًا نجسًا، ... فنهى عنه لما فيه من إتلاف المال، ولأنه ربما شربه بعد إسكاره)). (شرح صحيح مسلم ١/١٨٥)

(٢) صحيح البخاري: كتاب الخمس، باب أداء الخمس من الدين، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ρ، واللفظ له.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الجهاد، باب مَن تكلّم بالفارسية والرَّطانة.

(٤) فتح الباري ٦/١٨٥.

حال المخاطب، فلا يخفى ما في هذه الملاطفة من حُسن تعامل مع الصغير، وأخذٍ بخاطره، وتطييبٍ لنفسه، بأبي هو وأمي ρ.

وحديث أبي هريرة τ أنّ الحسن بن علي أخذ تمرة من تمر الصدقة، فجعلها في فِيهِ، فقال النبيّ ρ بالفارسية: «كِخْ كِخْ، أمَا تَعْرِفُ أنَّا لا نَأكُلُ الصَّدَقَةَ؟!»(١)، قال ابن حجر في شرح الحديث: ((والغرض منه قوله: "كخ كخ"، وهي كلمة زجر للصبي عما يريد فعله ... وجه مناسبته أنه ρ خاطبه بما يفهمه مما لا يتكلم به الرجل مع الرجل، فهو كمخاطبة العجميِّ بما يفهمه من لغته))(٢).

ومن ذلك حديث عطيّةَ السَّعدي τ قال: قدمت على رسول الله ρ فلما رآني قال: «مَا أغْنَاكَ اللهُ فَلا تَسْأَلِ النَّاسَ؛ فَإنَّ اليَدَ العُلْيَا خَيرٌ، هِيَ المُنْطِيَةُ، واليَدُ السُّفْلَى هِيَ المُنْطَاةُ، وإنَّ مَالَ اللهِ مَسْؤُولٌ ومُنْطَى»، قال: فكلَّمَنا رسولُ الله ρ بِلغتنا(٣).

لقد كان العرب قومًا ((يُقادون من ألسنتهم، ولهم المقامات المشهورة في البيان والفصاحة؛ ثم هم مختلفون في ذلك على تفاوت ما بين طبقاتهم في اللغات، وعلى اختلاف مواطنهم ... فمنهم الفصيح والأفصح، ومنهم الجافي والمضطرب، ومنهم ذو اللوثة والخالصُ في منطقه، إلى ما كان من اشتراك اللغات وانفرادها بينهم، وتخصُّصِ بعض القبائل بأوضاع وصيغِ مقصورة عليهم، لا يساهمهم فيها غيرهم من العرب، إلا من خالطهم أو دنا منهم دنوَّ المأخذ. فكان ρ يعلم كلَّ ذلك على حقه؛ كأنما تكاشفه

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد، باب مَن تكلّم بالفارسية والرَّطانة.

(٢) فتح الباري ١٨٥/٦.

(٣) السنن الكبرى: كتاب الزكاة، باب بيان اليد العليا واليد السفلى، والمستدرك ٣٢٧/٤، وقال: ((هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يُخرِّجاه)). والحديث في صحيح البخاري: كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، ونصُّه: «اليَدَ العُلْيَا خَيرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، فَاليَدُ العُلْيَا هِيَ المُنْفِقَةُ، والسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ».

أوضاع اللغة بأسرارها، وتبادره بحقائقها؛ فيخاطب كلَّ قوم بلحنهم وعلى مذهبهم، ثم لا يكون إلا أفصحَهم خطاباً، وأسدَّهم لفظاً، وأبينَهم عبارة، ولم يُعرف ذلك لغيره من العرب، ولو عُرف لقد كانوا نقلوه وتحدَّثوا به واستفاضَ فيهم))[١].

اختلاف الإجابة:

لن تغيب هذه الظاهرة الفريدة عن المطالع لكتب السنة، وقد أشار النوويّ رحمه الله إلى هذا الاختلاف، وأنه مبني على ما يخصّ السائل ويعنيه[٢]. وشواهده في السنة كثيرة:

تأمَّلْ ذلك السُّؤالَ المتكرِّر الذي سأله عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، عن سبب دخول الجنة، وأكثرِ الأعمال الموصِلَةِ إليها، تلمحْ أنَّ إجابة النبيّ الكريم υ تختلف باختلاف السائل والمقام، ومن الأمثلة على ذلك:

حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما، أنّ رجلاً . وهو النعمان بن قَوقَل الخزاعي . سأل رسول الله ρ فقال: ((أرأيتَ إذا صلّيتُ الصلوات المكتوبات، وصمتُ رمضان، وأحللتُ الحلال، وحرَّمتُ الحرام، ولم أزد على ذلك شيئا، أأدخل الجنّة؟))، قال: «نَعَمْ»، قال: ((والله لا أزيدُ على ذلك شيئًا))[٣]. فلم يذكر الحجّ والزكاة؛ إمّا لأنّهما لم يُفرضَا بعدُ؛ وإمّا لكونه غير مكلّف بهما؛ لفقره وعدم استطاعته؛ أو لأنّهما يدخلان في عموم قوله: "وأحللت الحلال وحرمت الحرام"؛ لأنّ تحقيق ذلك

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٨٣.

(٢) ينظر: شرح صحيح مسلم ١/١٧٤.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة.

يستلزم فعل كلّ الفرائض؛ أو لأنّ النعمان من أهل بدر(١)، وقد شُهد لهم بالجنّة، كما قال ρ: «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُم، فَقَد غَفَرْتُ لَكُمْ»(٢).

وحديث أبي أيوب الأنصاري τ أنّ رجلاً قال للنبيّ ρ: ((أخبرني بعمل يُدخلني الجنّة؟)) . وعند مسلم: ((دُلَّني على عمل أعمله، يدنيني من الجنّة، ويباعدني من النار)) . قال: ((ما لَه؟ ما لَه؟))(٣)، وقال النبيّ ρ: «أَرَبٌ ما لَه، تَعْبُدُ اللهَ وَلا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وتُقِيمُ الصَّلاةَ، وتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وتَصِلُ الرَّحِمَ»(٤)، فأمره النبيّ بذلك، ولم يأمره بالصوم والحجّ.

وجاءت رواية أخرى للحديث في صحيح مسلم: أنّ أعرابيًّا عَرَض لرسول الله ρ وهو في سفر، فأخذ بخِطام ناقته أو بزِمامها، ثم قال: ((يا رسول الله! أو: يا محمد! أخبرني بما يُقرِّبُني من الجنة، وما يُباعدني من النار))، فكفَّ النبيّ ρ، ثم نَظَرَ في أصحابه، ثم قال: «لَقَدْ وُفِّقَ»، أو: «لَقَدْ هُدِيَ»، قال: «كيفَ قُلْتَ؟»، فأعاد، فقال النبيّ ρ: «تَعْبُدُ اللهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وتُقِيمُ الصَّلاةَ، وتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وتَصِلُ الرَّحِمَ؛ دَعِ النَّاقَةَ»(٥).

ومظاهر مراعاة مقتضى الحال في هذه الرواية عديدة؛ فإضافة إلى ما أنا بصدد الحديث عنه من اختلاف الإجابة، فقد ظهرت فيها دلائل مراعاة النبيّ ρ لخلق

---

(١) ينظر: الإصابة ١٠/١٦٨.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الجهاد، باب الجاسوس، وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم، وقصة حاطب بن أبي بلتعة، واللفظ له.

(٣) المستفهِم هنا هم الصحابة، كما رجّحه ابن حجر (ينظر: فتح الباري ٣/٢٦٤).

(٤) صحيح البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة.

(٥) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة.

هذا الأعرابي، الذي اختطف زمام الناقة، وبدأ بتوجيه سؤاله؛ فرفق به υ حين استجاب له، وحين أطفأ دهشة أصحابه بنظره إليهم، وحين تلطّف بالسائل بالرغم من غلظته فأثنى على سؤاله وأشاد به، ولن يفوت ما في قوله "دع الناقة" بعد انتهاء الإجابة من إشارة إلى التيسير في هذا الدين، وكأنه يقول: "لا مزيد على ذلك"! ويدلّ على هذه الدلالةِ الروايةُ الأخرى الواردةُ بعد هذه في صحيح مسلم، إذْ جاء فيها قوله υ: «إنْ تَمَسَّكَ بِمَا أُمِرَ بِهِ دَخَلَ الجنَّةَ».

ومن شواهد اختلاف الإجابة حديثُ أبي هريرة τ أنّ أعرابيًّا أتى النبيّ ρ فقال: ((دُلَّني على عمل إذا عملتُه دخلت الجنة))، قال: «تَعبُدُ اللهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وتُقِيمُ الصَّلاةَ المكْتُوبَةَ، وتُؤَدِّي الزَّكَاةَ المفرُوضَةَ، وتَصُومُ رَمَضَانَ»، قال: ((والذي نفسي بيده لا أزيدُ على هذا))، فلما ولّى قال النبيّ ρ: «مَنْ سَرَّهُ أنْ يَنْظُرَ إلى رَجُلٍ مِن أهْلِ الجنّةِ فَلْيَنْظُرْ إلى هَذَا»(١). وفي هذا الحديث ذكر صوم رمضان، ولم يذكر صلة الرحم.

لقد كان السؤال في الحديثين الأخيرين عما يُدخل الجنة؛ ولذا جاءت الإجابة متعلقة بأصول الإسلام، لكنه في الحديث الأول منهما دلَّهُ على صلة الرحم، ولعلّ ذلك لحال يعلمه في السائل، أو لأنّ صلة الرحم سبب لترابط المجتمع، وهذا معين على القيام بواجبات الإسلام وشرائعه، كما أنّ ذلك ينسجم مع القرآن حيث قرن الله تعالى الأمرَ بعبادته بالإحسان إلى الوالدين وذي القربى: ﱡ □ □ □ □ □□ □ ﱢ ﱣ □ ﱤ ﱠ [النساء: ٣٦]، قال ابن حجر: ((وخَصَّ هذه الخصلة من خلال الخير نظرًا إلى حال السائل، كأنه كان لا يصل رحمه فأمره به؛ لأنه المهم بالنسبة إليه، ويؤخذ منه

(١) صحيح البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة.

تخصيص بعض الأعمال بالحضّ عليها بحسب حال المخاطَب، وافتقاره للتنبيه عليها أكثر مما سواها، إمّا لمشقتها عليه، وإمّا لتسهيله في أمرها))[١]. وأمّا تركه الأمرَ بالصوم في الحديث الأول؛ فقد يكون وقت السؤال متزامنًا مع الصوم، فلم يكن ثمة حاجة إلى بيانه. ومما هو دليل على مراعاة الحال عنده υ قوله: «مَن سَرَّهُ أنْ يَنْظُرَ إلى رَجُلٍ مِن أهْلِ الجنّةِ فَلْيَنْظُرْ إلى هَذَا»، نقل ابن حجر كلامًا للقرطبي، وفيه: ((ولعل أصحاب هذه القصص كانوا حديثي عهد بالإسلام فاكتفى منهم بفعل ما وجب عليهم في تلك الحال لئلا يثقُل ذلك عليهم فيملُّوا، حتى إذا انشرحت صدورهم للفهم عنه والحرص على تحصيل ثواب المندوبات سهُلت عليهم))[٢]، وفي ذلك فائدة جليلة في التدرّج في التعليم.

وأتى أبو أمامة τ رسولَ الله ρ فقال: ((أخبرني بِعملٍ يُدْخلُني الجنَّة))، قال: «عَلَيكَ بالصَّومِ؛ فإنَّهُ لا عِدْلَ لَهُ»، أو قال: «لا مِثْلَ لَهُ»[٣]، فلعله آنس من حاله أنّ الصومَ أنفعُ له، وأنه أقدرُ عليه.

وروى أحمد أنّ ابن المُنْتَفِق τ أتى النبيّ ρ وهو بعرفات وسأله: ((ثِنتان أسألك عنهما: ما يُنجيني من النار، وما يُدخلني الجنّة؟))، قال: ((فنظر رسول الله ρ إلى السماء، ثم نَكَس رأسه، ثم أقبل عليَّ بوجهه))، قال: «لَئنْ كُنتَ أَوْجَزْتَ في المسْألَة، لَقَد أَعْظَمْتَ وأطْوَلْتَ، فَاعْقِلْ عَنِّي إذًا: اعْبُدِ اللهَ لا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وأقِمِ الصَّلاةَ المكْتُوبَةَ، وأَدِّ الزَّكَاةَ المفرُوضَةَ، وصُمْ رَمَضَانَ، وما تُحِبُّ أنْ يَفْعَلَهُ بِكَ النَّاسُ فَافْعَلْهُ بِهِم، ومَا تَكْرَهُ أنْ يأتِيَ إلَيْكَ النَّاسُ فَذَرِ النَّاسَ مِنهُ»[٤]. فلم يذكر له الحجّ؛ لأنّه في

(١) فتح الباري ٣/٢٦٥.
(٢) فتح الباري ٣/٢٦٥.
(٣) مسند أحمد ٣٦/٦٠٩.
(٤) مسند أحمد ٤٥/١٣٢، وذكر المحقِّق أنّ إسناده ضعيف.

الحجّ وفي عرفات، كما أنّ مما يلفت النظر في هذا الحديث أمره بمعاملة الناس بما يحبّ المرء أن يعاملوه به؛ ومناسبة هذا التوجيه أنّ السائل أتاه في أثناء الحج، وهو موسم يحصل فيه تزاحم وتدافع وغضب وتخاصم، وهو مظنة الافتقار إلى الأخلاق الكريمة والصبر على الأذى وتحمّل الناس؛ فجاء التوجيه إليه والتأكيد عليه، والحج هو العبادة الوحيدة التي كان من شروط تمامها عدم الرفث والفسوق؛ فـ «مَن حَجَّ للهِ؛ فَلَم يَرْفُثْ وَلَم يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَومِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»(١).

وفي موضع آخر وحديث آخر ذكر الحج؛ ففي حديث أبي هريرة τ أنّ رسول الله ρ سئل: ((أيّ العمل أفضل؟))، فقال: «إيْمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ»، قيل: ((ثم ماذا؟))، قال: «الجِهَادُ في سَبِيلِ اللهِ»، قيل: ((ثم ماذا؟))، قال: «حَجٌّ مَبْرُورٌ»(٢). وفي حديث ابن مسعود τ قال: سألتُ النبيّ ρ: ((أيّ العمل أحبّ إلى الله؟))، قال: «الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا»، قال: ((ثم أيٌّ؟))، قال: «ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَينِ»، قال: ((ثُم أيٌّ؟))، قال: «الجِهَادُ في سَبِيلِ اللهِ»(٣).

ومدار الفرق بين الحديثين فيما يظهر عائد إلى طبيعة سؤال السائل؛ فإنّ السائل الأول سأل عن أفضل العمل، ومعلوم أنّ "الأجر على قدر المشقة"؛ فجاءت إجابته ρ منسجمةً مع هذا الأصل؛ إذْ ذكر أعمالاً عظيمة تحصل فيها مشقة كبيرة، ولا يردُ أنه ذكر الإيمان، وهو عمل قلبيّ لا مشقة فيه؛ لأنّ ما يستلزمه الإيمان من

(١) صحيح البخاري: كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، وصحيح مسلم: كتاب الحج، باب فضل الحج والعمرة، واللفظ للبخاري.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضلَ الأعمال.

(٣) صحيح البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضلَ الأعمال.

الأعمال، وما قد يترتب عليه من المشقة والابتلاء يجعله مظنة المشاق والمكاره. وأمّا السائل الثاني فقد سأل عن أحبّ الأعمال إلى الله، والله Y رحيم بعباده، يريد بهم اليسر؛ ولهذا ذكر النبيّ ρ من الأعمال ما يحبه الله وإنْ لم يكن فيه مشقة؛ فكان أول هذه الأعمال الصلاة، وهي لقاء العبد بربه، ووقوفه بين يديه، وهي الصلة بينهما، وفي ذكرها بيان لعظم منزلتها، وعظم رحمة الله بعباده إذْ كانت أحبّ الأعمال إليه I، وأمّا العمل الثاني فله علاقة بالمحبة والحب الوارد في السؤال؛ لأنّ أعظم علاقة بشرية هي علاقة الوالد بولده، والحب فيها أصدق الحبّ وأبرّه، ثم جاء ذكر الجهاد ثالثًا؛ لأنّ المرء إنْ أقام الصلة بينه وبين ربه على أحسن وجه، ثم أوفى صلته بأقرب الناس إليه؛ فقد بقي دوره في المجتمع والعالم المحيط به، وهذا يتمثل ويظهر في نشر دينه، كما أنّ في ذكر الجهاد ربطًا بين هذا الحديث وسابقه، يجعل منهما كلامًا متكاملاً متتابعًا.

قال القاضي عياض رحمه الله: ((وقيل: إنما اختلفت الأجوبة في هذه الأحاديث ... لاختلاف الأحوال، وأعلمَ كلَّ قوم بما بِهمُ الحاجةُ إليه، وتركَ ما لم تَدْعُ حاجتُهم إليه، أو مما كان عَلِمه السائلُ قبل فأُعْلِم بما تدعو الحاجة إليه، أو بما لم يُكمله بعدُ من دعائم الإسلام، ولا بلغه علمُه. وقيل: قدَّم في حديث أبي هريرة فضل الجهاد على الحج؛ لأنه كان في أوَّل الإسلام، ومحاربة أعدائه، والجدّ في إظهاره))[1].

ومن هذا الباب: أنَّ ((رجلاً سأل رسولَ الله ρ: أيُّ الإسلامِ خيرٌ؟))، قال: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وتَقْرَأُ السَّلامَ عَلَى مَن عَرَفْتَ وَمَنْ لَم تَعْرِفْ»[2]، وسأله رجلٌ في

(١) إكمال المعلم ٣٤٩/١.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب إطعام الطعام من الإسلام، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل.

موضع آخر: ((أيُّ المسلمين خيرٌ؟))، فقال: «مَنْ سَلِمَ المسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[١]، وأشار القاضي عياض إلى اختلاف إجابته υ في الحديثين، وخرَّجها على أنه: ((أجاب كلَّ واحد من السَّائلين بما رآه أنفعَ له، وأخصَّ به، وقد يكون ظهر من أحدهما كِبْرٌ وإمساكٌ وانقباضٌ عن الناس، فأجابه بما في الحديث الأول من إطعام الطعام وإفشاء السلام، وظهر من الآخر قلةُ مراعاة ليده ولسانه فأجابه بالجواب الآخر، أو يكون ρ تخوَّف عليهما ذلك، أو كانت الحاجةُ في وقت سؤال كل واحد منهما للعامة أمسَّ بما جاوب به))[٢].

ومن الشواهد المهمة في هذا السياق حديث معاذ بن جبل τ قال: كنتُ مع النبيّ ρ في سفر فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير، فقلتُ: ((يا نبي الله، أخبرني بعمل يُدخلني الجنة، ويباعدني من النار))، قال: «لَقَد سَألتَ عَن عَظِيمٍ، وَإنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَن يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيهِ، تَعبُدُ اللهَ وَلا تُشرِكُ بِهِ شَيئًا، وتُقِيمُ الصَّلاةَ، وتُؤتي الزَّكَاةَ، وتَصُومُ رَمَضَانَ، وتَحُجُّ البَيتَ، ثم قَالَ: «ألاَ أدُلُّكَ عَلَى أبوَابِ الخيرِ؟ الصَّومُ جُنَّةٌ، والصَّدَقَةُ تُطفِئُ الخطِيئَةَ، وصَلاةُ الرَّجُلِ في جَوفِ الليلِ»، ثم قرأ: ﱡ□□□□□□□ □□ □□ □□□□□□□□ ﱠ [السجدة: ١٦–١٧]، ثم قال: «ألاَ أُخْبِرُكَ بِرَأسِ الأمْرِ وَعَمُودِهِ وذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟»، فقلت: ((بَلَى يا رسول الله))، قال: «رَأْسُ الأمْرِ الإسْلامُ، وعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وذِروَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ»، ثم قال: «ألاَ أُخْبِرُكَ بِمَلاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟»، فقلت: ((بلى يا نبيَّ الله))، فأخذ بلسانه، فقال: «كُفَّ عَلَيكَ هَذَا»، فقلتُ: ((يا

(١) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب أيّ الإسلام أفضل، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل، واللفظ له.

(٢) إكمال المعلم ٢٧٧/١.

رسول الله، وإنّا لمؤاخذون بما نتكلّم به؟!))، فقال: «ثَكِلَتْكَ أمُّكَ يَا مُعَاذُ! وهَل يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِم . أو قال عَلَى مَنَاخِرِهِم . إلا حَصَائدُ ألسِنَتِهِمْ؟!»[1].

فمعاذ τ كما هو معلوم هو أعلم الأمة بالحلال والحرام[2]، وعبارته تدل على أنّ جوّ حديثه مع النبيّ الكريم ρ كان جوًّا هادئًا روحانيًّا، فكان الحوار أشبه بحوار تلميذ مع شيخه؛ فناسب هذا الحالَ أنْ يتبسّطَ رسولُ الله ρ في الحديث، ويفصِّلَ في البيان ما لم يكن لغير معاذ في الأحاديث السابقة.

اختلاف الوصية للمخاطب:

كثيرًا ما يستنصِحُه أحدُ الصحابة، أو يطلب منه وصية؛ فتكون إجابته υ مختلفة باختلاف حال المخاطب. وهاكم بعضَ الأمثلة:

في حديث عبدالله بن بُسْر τ أنّ رجلاً قال: ((يا رسول الله، إنّ شرائع الإسلام قد كثرت عليّ، فأخبرني بشيء أتشبَّثُ به))، قال: «لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِن ذِكْرِ اللهِ Y»[3].

وقال سفيان بن عبد الله الثقفي τ: ((يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا غيرَك))، قال: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، فَاسْتَقِمْ»[4].

---

(١) مسند أحمد ٣٤٤/٣٦.

(٢) ينظر: سنن الترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب معاذ وزيد وأُبيّ بن كعب وأبي عبيدة، وسنن ابن ماجة: فضائل خبّاب في المقدمة، ومسند أحمد ٤٠٦/٢١.

(٣) سنن الترمذي: كتاب الدعوات، باب فضل الذكر، وسنن ابن ماجة: كتاب الأدب، باب فضل الذكر، ومسند أحمد ٢٢٦/٢٩.

(٤) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام.

وفي حديث أبي هريرة τ أنّ رجلاً قال للنبي ρ: ((أَوْصِنِيْ))، قال: «لا تَغْضَبْ!»، فردّد مرارًا، قال: «لا تَغْضَبْ!»[١].

فهو في هذه الأحاديث لا يوصي المرء بالوصية نفسها، وأغلب الظن أنه يقدّر ما يناسب المخاطب، فيختار له من الوصايا ما يناسبه، وهذا يتوافق مع ما تقتضيه المصلحةُ ومطابقةُ مقتضى الحال.

فالأول أعرابي أوصاه بكثرة ذكر الله Y، ولعله علم من حاله أنه قد ينشغل عن هذا الأمر، وأنّ لديه من العمل ما يلهيه ويشغله، ويجعل بعض الأعمال أو العبادات شاقة عليه، فأرشده إلى ما لا يكلفه ولا يشق عليه، مع جلالة قدره، كما في الحديث البليغ الآخر: «ألاَ أُنَبِّئُكُم بِخَيرِ أعْمَالِكُم، وَأزكَاهَا عِندَ مَلِيكِكُم، وَأرْفَعِهَا في دَرَجَاتِكُم، وخَيرٍ لَكُم مِن إعْطَاءِ الذَّهَبِ والوَرِقِ، وأنْ تَلْقَوا عَدُوَّكُم فَتَضرِبُوا أعْنَاقَهُم، وَيَضرِبُوا أعْنَاقَكُم؟»، قالوا : ((وما ذاك يا رسول الله؟))، قال: «ذِكْرُ اللهِ Y»[٢]. ويدل على أنّ هذا هو المناسبُ لحال الأعرابي أنه في طلبه قد قال: ((إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ))، فهو عالم بشرائع الدين، لكنها كثُرت عليه.

وأمّا الثاني فلعله عرف من حاله أنه رجل يريد إجابة شاملة، ولا يريد عملاً محدّدًا، أي: أنه يريد منهجًا لحياته؛ بدليل أنه قال: ((قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك))، فهو يطلب إجابة تغنيه عن أي سؤال فيما بعد، ومثل هذا يناسب حاله أن يُعطى وصية شاملة تستغرق أبواب الخير كلَّها.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب.

(٢) سنن الترمذي: كتاب الدعوات، باب فضل الذكر، وسنن ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الذكر.

وأمّا الثالث فلعله عرف من حاله أنه سريع الغضب وكثيره، فأرشده إلى ما يعالج مشكلة قائمة قبل أن ينتقل إلى بناء جديد، ويدل على طبيعة هذا الرجل أنه ردّد طلبه ثلاثًا؛ فترداده يكشف عن حالة نفسية لديه تدل على أنه ليس سريع القبول لما يقدّم له أو يُعرض عليه. وقد نقل ابن حجر في شرحه لهذا الحديث عن بعض أهل العلم قوله: ((لعل السائل كان غضوبًا، وكان النبيّ ρ يأمر كلَّ أحد بما هو أولى به، فلهذا اقتصر في وصيته له على ترك الغضب))(١).

فحال المخاطَب في سياق الكلام هو المعوّل عليه في اختيار الإجابة أو اختلاف العبارة أو اختلاف الأسلوب، فكأنّ ((العبارة حينئذٍ موجَّهةٌ إلى موقف معين، هو الذي يحدّد دلالاتها، مادام المتكلم قصد بها إليه، وأودعها من الخصائص والأحوال ما يطابق حال هذا المخاطب أو حال هذا الموقف، وكأنّ الجملة استمدّتْ أحوالها البلاغية من دواخل نفس المخاطَب وأحوالِهَا كما يتصوّرها المتكلم، وبذلك تتحدّد دلالتها، وتُضبط حدودها، ويُخصَّص عمومها))(٢).

استخدام الأسلوب الرمزيّ:

وهو الأسلوب الذي يتجنّب فيه المتكلِّم أنْ يوجِّه اللوم إلى شخص بذاته، أو أشخاص معيَّنين؛ حتى ينصرف ذهن السامع إلى هذا العمل الذي يُراد التحذير منه، لا إلى الأشخاص وذواتهم. وقد بوّب البخاري بابًا من أبواب كتاب "الأدب" في صحيحه بـ"باب مَن لم يواجه الناسَ بالعتاب"؛ أي: عاتبهم بطريق غير مباشر.

(١) فتح الباري ١٠/٥٢٠.

(٢) دلالات التراكيب ٦٧.

وفي هذا الأسلوب تحقيق الغرض المراد، مع مراعاة مقتضى الحال؛ بمراعاة النفس الإنسانيّة التي قد تجد في إعلان خطئها تشهيرًا بها لا ترضاه، مما قد يترتب عليه العناد والاستمرار على الخطأ، وعندئذ لا تتحقق الفائدة المرجوَّة. ومن فوائد هذا الأسلوب حسن العشرة عند الموعظة، والإنكار والتلطف فيه، والستر على المعاتَب، ليحصل بذلك الرفق به(١).

من هذا الأسلوب: ما كان υ ينهجه في بعض التوجيهات حين يقول: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفعَلُون كَذَا وَكَذَا؟»، أو «... يقولون كذا وكذا؟»، ومن هديه ρ: ((أنه إذا كره شيئًا فخطب له، ذكر كراهيته، ولا يعيِّن فاعلَه، وهذا من عظيم خلقه ρ؛ فإنّ المقصودَ من ذلك الشخصُ وجميعُ الحاضرين وغيرُهم ممن يبلغه ذلك، ولا يحصل توبيخ صاحبه في الملأ))(٢). ومن أمثلته:

حديث أنس بن مالك τ أنّ النبيّ ρ قال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُم إلى السَّمَاءِ في صَلاَتِهِم؟»، فاشتدّ قولُه في ذلك، حتى قال: «لَيَنْتَهُنَّ عَن ذَلِكَ، أو لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ»(٣).

وحديث عائشة رضي الله عنها، وفيه أنّ الرسول ρ قام على المنبر فقال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيسَتْ في كِتَابِ اللهِ؟ مَنِ اشْتَرَطَ شَرْطًا لَيسَ في كِتَابِ اللهِ فَلَيسَ لَهُ، وَإِنِ اشْتَرَطَ مِئَةَ مَرَّةٍ»(٤).

(١) ينظر: شرح صحيح مسلم ١٠٧/١٥، وفتح الباري ٥١٤/١٠، وعمدة القاري ٤٥/٤.
(٢) ينظر: شرح صحيح مسلم ١٧٦/٩.
(٣) صحيح البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب رفع البصر إلى السماء في الصلاة.
(٤) صحيح البخاري: كتاب المساجد، باب ذكر البيع والشراء على المنبر في المسجد.

وحديث عائشة قالت: رخّص رسول الله ρ في أمر، فتنَزَّه عنه ناس من الناس، فبلغ ذلك النبيّ ρ فغضب حتى بان الغضب في وجهه، ثم قال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْغَبُونَ عَمَّا رُخِّصَ لِي فِيهِ؟ فَوَاللهِ لأَنَا أَعْلَمُهُم بِاللهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»(١).

وحديث أنس τ أنّ نفرًا من أصحاب النبيّ ρ سألوا أزواج النبيّ ρ عن عمله في السر، فقال بعضهم: ((لا أتزوج النساء))، وقال بعضهم: ((لا آكل اللحم))، وقال بعضهم: ((لا أنام على فراش)). فحمد الله وأثنى عليه، فقال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَن رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيسَ مِنِّي»(٢).

وحديث أبي حُمَيد السَّاعديّ أنّ رسول الله ρ استعملَ عاملاً، فجاءه العاملُ حين فرغ من عمله، فقال: ((يا رسول الله، هذا لكم، وهذا أُهدِي لي))، فقال: «أَفَلاَ قَعَدْتَ في بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ، فَنَظَرْتَ أَيُهْدَى لَكَ أَمْ لا؟»، ثم قام رسول الله ρ عَشِيَّةً بعد الصلاة، فتشهَّدَ وأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ، فَمَا بَالُ العَامِلِ نَسْتَعْمِلُهُ، فَيَأْتِيْنَا فَيَقُولُ: "هَذَا مِن عَمَلِكُم، وَهَذَا أُهْدِيَ لي؟ أَفَلاَ قَعَدَ في بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَنَظَرَ؛ هَلْ يُهْدَى لَهُ أَمْ لا؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لا يَغُلُّ أَحَدُكُم مِنْهَا شَيْئًا إلا جَاءَ بِهِ يَومَ القِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ، إنْ كَانَ بَعِيرًا جَاءَ بِهِ لَهُ رُغَاءٌ، وإنْ كَانَتْ بَقَرَةً جَاءَ بِهَا لَهَا خُوَارٌ، وإنْ كَانَتْ شَاةً جَاءَ بِهَا تَيْعَرُ، فَقَدْ بَلَّغْتُ»(٣).

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب مَن لم يواجه الناس بالعتاب، وصحيح مسلم: كتاب الفضائل، باب علمه ρ بالله تعالى وشدة خشيته، واللفظ له.

(٢) صحيح مسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كان يمين النبيّ ρ، وصحيح مسلم: كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال، واللفظ للبخاري.

ومن الأسلوب الرمزيّ: الإكثار من استخدام ضمير الغائب عند التحذير من المحرّمات أكثرَ من ضمير المخاطبين، نحو قوله ρ: «رَغِمَ أَنْفُهُ، ثمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ، ثمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ»، قيل: ((مَن يا رسولَ الله؟)) قال: «مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الكِبَرِ؛ أَحَدَهُمَا أو كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ»(١). وقوله: «واللهِ لا يُؤْمِنُ! واللهِ لا يُؤْمِنُ! واللهِ لا يُؤْمِنُ!»، قيل: ((مَن يا رسولَ الله؟)) قال: «الذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»(٢). ونحو: «مِن حُسْنِ إسْلامِ المرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ»(٣).

الـتـكـرار:

هو من سنن العرب، يريدون منه العنايةَ بالأمر المهم(٤)، وهو دقيق المأخذ عند البليغ، وقد عدَّه ابنُ الأثير من مقاتل علم البيان؛ لدقّته(٥). وهدفه إثارة اهتمام المخاطَبين؛ ترغيبًا أو تنفيرًا، وهو مرتبط بتداعي المعاني، ووسيلة تربوية من وسائل التقرير(٦). وقد يكون الغرضُ منه دفعَ أسباب الغلطِ والوهمِ والغفلةِ، وتحقيقَ المعاني والمقاصد(٧)، ولذا كان من مواضعه مقاماتُ الحديث في الأمور العظام، أو الأمور التي يُلحظ تقصيرٌ من الناس فيها، أو غفلةٌ عنها أو عن دواعيها. ومن أغراضه

(١) صحيح مسلم: كتاب البر والصّلة والآداب، باب تقديم الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها.
(٢) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب إثم من لم يأمن جاره بوائقه.
(٣) سنن الترمذي: كتاب الزهد، باب فيمن تكلم فيما لا يعنيه، وصحيح سنن الترمذي ٢٦٨/٢، وسنن ابن ماجه: كتاب الفتن، باب كفّ اللسان في الفتنة، ومسند أحمد ٢٥٩/٣.
(٤) ينظر: الصاحبي ٣٤١، والمزهر ٣٣٢/١.
(٥) ينظر: المثل السائر ١٤٦/٢.
(٦) ينظر: التكرير بين المثير والتأثير ١٣٦.
(٧) ينظر: أسرار العربية ٢٨٣، وشرح الرضي للكافية ٣٥٧/٢.

كذلك: تعظيم الشيء وتفخيمه[١]، والتهديد، والتلذُّذُ بترديد لفظٍ مدلولُه مرغوبٌ[٢]. وقد يرِد على وجه التوجُّع والتحسُّر في مقامات الرّثاء، قال ابن رشيق: ((وأولى ما تكرَّر فيه الكلام بابُ الرِّثاء؛ لمكان الفجيعة، وشدّة القُرحة التي يجدها المتفجِّع))[٣].

فالكلام إذن ليس عن تكرارٍ لا فائدةَ منه ولا طائلَ وراءه، فذاك لا علاقة له بمقصودنا، وقد يستعمله العَيِيّ حين يُرتج عليه، وهو ـ حين ذاك ـ الخذلانُ بعينه[٤]. لكنّا نشير إلى ما كان مفيدًا، مؤدّيًا لدلالة يعِيها المتكلم ويريدها، وكما قال ابن الأثير؛ فـ((المفيد من التكرير يأتي في الكلام تأكيدًا له، وتشييدًا من أمره؛ وإنما يُفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي كرّرت فيه كلامَك؛ إمّا مبالغةً في مدحه، أو في ذمّه، أو غير ذلك، ولا يأتي إلا في أحد طرفي الشيء المقصود بالذكر، والوسطُ عارٍ منه؛ لأنّ أحد الطرفين هو المقصود بالمبالغة إمّا بمدح أو ذمٍّ أو غيرهما، والوسط ليس من شرط المبالغة))[٥].

ولذا كثر في الأسلوب الخطابي، أو في مخاطبة المتلقّين مباشرة؛ لأنّ المقام يكون في هذه الحالة أكثر حميمية، والحديث يكون أكثر حرارة وفهمًا وقبولاً.

---

(١) ينظر: العمدة ٦٨٦/٢، وأمالي ابن الشجري ٣٧٠/١.

(٢) ينظر: العمدة ٦٨٣/٢، وتحرير التحبير ٣٧٥، والنحو الوافي ٤٢٤/٣، والتكرير بين المثير والتأثير ١٣٧-١٩٧.

(٣) العمدة ٦٨٦/٢.

(٤) ينظر: العمدة ٦٨٣/٢ و٦٩١.

(٥) المثل السائر ١٤٧/٢.

وقد حفل مبحث التوكيد في كتب اللغة والنحو بما يدلّ على المراد، وما يشير إلى المقصود، وأبان العلماءُ أنواعَه وصورَه[١]، بل جاء في كتب الأدب وكتب البلاغة والبديع، وسمّوه "التكرار"، وبيّنوا أغراضه وشواهده من الكلام البليغ[٢].

والتكرار في سَمْت الحديث النبوي ونهجه واردٌ ثابتٌ، وهو مناسب لحال رسول الله ρ المأمور بالتبليغ، وقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم أنّ لتكراره الكلامَ غايةً وقصدًا، وأنّه يُعقِّب حفظًا له وفهمًا؛ فعن أنس τ: ((أنّ النبيّ ρ كان إذا تكلّم بكلمة أعادها ثلاثًا حتى تُفهمَ عنه))[٣]، وفي رواية أخرى: ((كان رسول الله ρ يعيد الكلمة ثلاثًا؛ لتُعقَل عنه))[٤].

ومن أمثلة هذا التكرار في البيان النبويّ:

حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه τ قال: قال النبيّ ρ: « أَلاَ أُنَبِّئُكُم بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟» ثلاثا، قالوا: ((بلى يا رسول الله))، قال: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وعُقُوقُ الوَالِدَينِ»، وجلس وكان متكئًا، فقال: «أَلاَ وَقَولُ الزُّورِ». قال: ((فما زال يكرِّرها حتى قلنا: ليته سكت))[٥]، وما هذا التكرار إلا تأكيد منه υ على خطورة قول الزور على الفرد والمجتمع، ((فبها تضيع الحقوق، ويظلم الناس، وتنتشر العداوة والبغضاء، ويظهر الفساد، وتضيع الأمانات))[٦]. يقول ابن حجر: ((ويفيد ذلك تأكيدَ تحريمه،

(١) ينظر: الصاحبي ٤٦٢، وأمالي ابن الشجري ٣٧٠/١ و٨٨/٣، وشرح الرضي للكافية ٣٥٧/٢، وأوضح المسالك ٣٣٦/٣، والنحو الوافي ٤٢٤/٣.

(٢) ينظر: العمدة ٦٨٣/٢، وتحرير التحبير ٣٧٥.

(٣) صحيح البخاري: كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثًا ليُفهم عنه.

(٤) سنن الترمذي: كتاب المناقب، باب كان ρ يعيد الكلمة ثلاثًا، وهو في صحيح السنن ١٩٦/٣.

(٥) صحيح البخاري: كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور.

(٦) الخصائص البلاغية للبيان النبوي ٥٦.

وعِظمَ قبحه، وسببُ الاهتمام بذلك كونُ قول الزور أو شهادة الزور أسهلَ وقوعًا على الناس، والتهاون بها أكثر، فإنّ الإشراك ينبو عنه قلبُ المسلم، والعقوقُ يَصرف عنه الطبعُ، وأمّا الزور فالحوامل عليها كثيرة؛ كالعداوة والحسد وغيرهما؛ فاحتيج إلى الاهتمام بتعظيمه، وليس ذلك لعظمها بالنسبة إلى ما ذُكر معها من الإشراك قطعًا، بل لكون مفسدة الزور متعدّيةً إلى غير الشاهد، بخلاف الشرك فإنّ مفسدته قاصرةٌ غالبًا))[1].

وحديث أبي هريرة τ أنّ رسول الله ρ قال: «واللهِ لا يُؤْمِنُ! واللهِ لا يُؤْمِنُ! واللهِ لا يُؤْمِنُ!»، قيل: ((مَن يا رسولَ الله؟)) قال: «الذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[2]. وفي التكرار هنا لفتٌ لأنظار الناس إلى الحرص على تجنّب إيذاء الجار، أو تعدّي الضَّرر والشرّ إليه؛ فالجار قريب من الدار، وحصول الأذى له بسبب هذا القرب وارد محتمل، وكم في الناس من يؤذي جاره . علم أو لم يعلم . إمّا بإزعاجه بالصوت، أو التضييق عليه، أو بأذى من أولاده، أو بغير ذلك من صور كثيرة، وقد جاء التأكيد على حق الجار في أحاديث كثيرة، منها حديث الصحيحين المشهور: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»[3]. ولما كانت المظنةُ حصولَ الأذى جاء التحذير والوعيد الشديد منه معنى؛ بما دلّ عليه من نفي الإيمان، ولفظًا؛ بما دلّ عليه بالقسَم والتكرار.

---

(١) فتح الباري ٥/٢٦٣.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب إثم من لم يأمن جاره بوائقه.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب الوَصَاءَة بالجار، وصحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه.

وحديث أبي هريرة τ أنّ رسول الله ρ قال: «رَغِمَ أَنْفُهُ، ثمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ، ثمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ»، قيل: ((مَن يا رسولَ الله؟)) قال: «مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الكِبَرِ؛ أَحَدَهُمَا أو كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ»(١). قال النووي: ((قال أهل اللغة: معناه ذُلٌّ، وقيل: كُرْهٌ وخِزْيٌ، وهو بفتح الغين وكسرها، وهو الرُّغم بضمّ الراء وفتحها وكسرها، وأصله "لصق أنفه بالرّغام"، وهو تراب مختلط برمل، وقيل: الرغم كل ما أصاب الأنف مما يؤذيه. وفيه الحثُّ على برّ الوالدين، وعِظمُ ثوابه، ومعناه: أنّ برّهما عند كبَرِهما وضعفهما بالخدمة أو النفقة أو غير ذلك سببٌ لدخول الجنة، فمن قصّر في ذلك فاته دخولُ الجنة، وأرغم الله أنفَه))(٢). إنّ الوالدين هما سبب وجود المرء في هذه الدنيا، ومَن سهرا وبذلا وتعبا من أجله؛ فلا يصدّ عنهما ولدٌ حالَ كبَرهما، واشتداد حاجتهما، وافتقارهما إلى الخدمة والمراعاة، إلا حين يكون غليظَ القلب، سيّءَ النفس، دنيءَ الخلُق، ومثله حقيق بشديد العقاب، وعظيم الإهانة والتحقير، وهو ما دلّت عليه ألفاظ التكرير.

ومن ذلك: حديث عبدالله بن المغَفَّل المزنيِّ τ أنّ النبيّ ρ قال: «صَلُّوا قَبلَ صلاةِ المغْرِبِ، قال في الثالثة: لِمَن شاءَ، كَرَاهِيَةَ أنْ يَتَّخِذَهَا النَّاسُ سُنَّةً»(٣).

ومما يستحق الوقوف عنده في هذه الأحاديث طريقة أداء النبيّ ρ وعدد مرات التكرار، ومن الواضح أنّ ذلك مرتبط بأهمية الأمر المكرَّر، وأثره على الأمّة. فقد يأتي التكرار مصاحبًا لظواهر فعلية أو لفظية أخرى:

ففي حديث شهادة الزور كان التكرار مفتوحًا، حتى قال الصحابة رضي الله عنهم: ((ليته سكت))، شفقةً به ρ ورأفةً بحاله، وقد علموا حرصه على أمته، ورحمته

(١) صحيح مسلم: كتاب البر والصّلة والآداب، باب تقديم الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها.
(٢) شرح صحيح مسلم١٠٨/١٦.
(٣) صحيح البخاري: كتاب التطوع، باب الصلاة قبل المغرب.

بهم، وصاحَبَ هذا التكرارَ تغييرٌ لجلسته، لَفَتَتْ إليه من كان قريبًا، ونبّهت من كان بعيدًا. لقد حفظ هذا التكرارُ للأمّة التحذيرَ الشديدَ من هذه الآفة التي ضاعت بها الحقوق، وشاع الظلمُ، حتى لا تكاد تجد من لا يحفظ هذا الحديث ويعقله؛ فالحجة به صارت ثابتة قطعية لا يرتاب فيها مرتاب، أو يتأوّلها مُتأوِّل. وأمّا انفراد هذا الحديث بتغيير الجلسة وشكلها فما أقربه من واقع حال شاهد الزّور الذي قد يقطع المسافات، وينتقل من مكان إلى مكان، للقيام بهذا الباطل والبهتان.

وفي حديث الجار جاء التكرار ثلاثًا، صاحَبَه ظاهرةٌ لفظيةٌ، هي القَسَم في كل مرّة، وكأنه بهذا التكرار المصاحب للقسم يدفع كل احتمال للتشكيك بعظم ذلك الأمر، أو التقليل من خطره. إنّ الإحسان في الإسلام ركيزة من ركائزه، ودعامة من دعائمه، وخاصية من خصائصه الكبرى، وقد أمر به حتى في ذبح الذبيحة؛ فقال υ: «إنّ اللهَ كَتَبَ الإحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ فَإذَا قَتَلْتُمْ فَأحْسِنُوا القِتْلَةَ، وإذَا ذَبَحْتُم فَأحْسِنُوا الذَّبْحَ، ولْيُحِدَّ أحَدُكُم شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[1]. فإذا كان الأمر كذلك عُلم أنّ الإساءة إلى الجار ـ مع قُرب داره ـ تنطوي على نفس قد غاب فيها داعي الإحسان، وغاض ماؤه، وذهب بهاؤه؛ فهي بحاجة إلى مَن يهزّها هزًّا عنيفًا يعيدها فيه إلى جادّة الصواب؛ فأتت تلك الصورة البيانية المؤكِّدة نفي الإيمان عمّن بلغ أذاه جارَه.

وفي حديث الوالدين ورد التكرار ثلاثًا، مصاحبًا لأسلوب لفظي وقولي فيه إذلالٌ وتحقير، جزاءً وِفَاقًا لمن لم يَرْعَ منْزلة والديه، ولم يقم بحقهما. بل بلغ من التأكيد على حقهما أنْ جاء الأمر بالوصية بالإحسان إليهما وإنْ كانا مشركين، فقال الله I:
ﱡ□ □ □ □ □ بر □ □ بن بى بي تر □ □ تن تى تي □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □
□ □ ﱠ [لقمان: ١٤-١٥]، وجاءت الوصية بالإحسان إلى صديقهما، كما ثبت في

(١) صحيح مسلم: كتاب الصيد، باب الأمر بإحسان الذبح وتحديد الشفرة.

الصحيح: «إنّ أَبَرَّ البِرِّ صِلَةُ الوَلَدِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ»[١]. ولئن كان حقُّهما عظيمًا في كل حين حتى بعد موتهما، فكيف بحال ضعفهما ووهنهما؟! إنّ الجزاء من جنس العمل، وما أعظمَ ما يشعر به الوالدان كبيرين من ذلٍّ وحسرةٍ وأسًى إنْ رأيَا تقصيرَ ابنهما في حقِّهما! فكذلك يكون جزاؤه أنْ يُرغم أنفه بالتراب في صورة ذليلة حقيرة، ينفر منها ذوو النفوس السَّويَّة، والفطر المستقيمة.

فإذا ما جئنا إلى المثال الرابع، وهو حديث الحث على النافلة قبل المغرب؛ فإنّا نجد النبرة قد هدأت، والحرارة قد خَبَتْ، فجاء التكرار غير مصحوب بظواهر تأكيدية أخرى. وسرّ ذلك . ولا ريب . ذو علاقة بموضوع الخطاب؛ فقد جاء الحديث للحثِّ على نافلة، ولذا جاء التخيير صريحًا بقوله «لمن شاء»، والأمر الذي يكون المرء فيه مخيَّرًا لا يُحتاج فيه إلى المزيد من وسائل التأكيد. لكن هذا يقيم سؤالاً: ما الغرض من التكرار في أمر خُيِّر الناس فيه؟ وإجابة هذا السؤال تظهر في فهم دلالات الحديث وفقهه، إذْ دلّ قوله «لمن شاء» على أنّ الغرض من التكرار تأكيد الاستحباب[٢]، والتكرار قد يكون لتأكيد الوجوب، وقد يكون لتأكيد الاستحباب، خاصة إذا كانت السُّنّة مما يُغفل عنه ويُفرَّط فيه. وأمّا "السُنّة" في قوله: «كراهية أنْ يتّخذها الناس سُنّة»، فالمراد ((شريعة وطريقة لازمة، وكأنّ المراد انحطاط مرتبتها عن رواتب الفرائض))[٣]. ومن أسرار التكرار الدال على التأكيد هنا حثُّ الناس على التبكير لصلاة المغرب؛ فإنّ وقتها . مقارنة بأوقات باقي الصلوات ـ وقتٌ قصيرٌ، كما أنّ القراءة فيها تكون قصيرة؛ فاحتاج الناس إلى مزيد من التأكيد على المسارعة إليها.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما.

(٢) ينظر: فتح الباري ١٠٧/٢.

(٣) فتح الباري ٦٠/٣.

استثمار الموقف:

يمر الإنسان في حياته بكثير من المواقف، والمربي والداعية يستطيع أن يستثمر هذه المواقف لتنبيه الناس أو تحذيرهم أو وعظهم وإرشادهم. وقد كان υ سريع البديهة في اقتناص مثل هذه المواقف أو المشاهد التي يمرّ عليها، أو يقف عليها ومعه أصحابه، مما يجعل ذلك المشهدَ أو تلك الصورةَ أكثرَ تأثيرًا، وأشدَّ نفاذًا، وأدقَّ هدفًا.

وقد حفلت السيرة والسنة النبوية بمواقف من هذا القبيل، ومنها: ما رواه عمر بن الخطاب τ قال: ((قدِم على النبيّ ρ سَبْيٌ، فإذا امرأة من السَّبْي قد تَحَلَّبَ ثَديُها[1] تَسقي، إذا وجدت صبيًّا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته)). فقال لنا النبيّ ρ: «أَتُرَونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا في النَّارِ؟»، قلنا: ((لا، وهي تقدر على ألا تطرحَه))، فقال: «للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِن هَذِهِ بِوَلَدِهَا»[2].

إنّ رحمة الأم بولدها تُعدُّ مضرب المثل في الدنيا، وهي مما لا يشك فيه إنسان، ولا يخفى على أحد. ومشهد الأم المفارقة لولدها، المتلهّفة شوقًا إليه، مشهدٌ شديد التأثير في المشاعر الإنسانية؛ لأنه يستدعي فيها أجلى صور الرحمة والعطف والشفقة. والرسول ρ ـ وهو يرى أمًّا أضناها الشوق لولدها حتى تعلقت بكل صبيٍّ ومالت إليه ـ أحسنَ استثمارَ هذا الموقف ليقرِّبَ للناس سعةَ رحمةِ اللهِ Y بهم، ليحصلَ بهذا الموقف المشاهَدِ تحصيلُ معرفة رحمة الله على وجهها[3].

---

(١) أي: تهيّأ لأنْ يُحلَب.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب مَن لم يواجه الناس بالعتاب، وصحيح مسلم: كتاب الفضائل، باب علمه ρ بالله تعالى وشدة خشيته، واللفظ له.

(٣) ينظر: فتح الباري ١٠/٤٣١.

إنّ المعنى في الحديث الصحيح الآخر: «جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِئَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَأَنْزَلَ في الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِن ذَلِكَ الجزْءِ تَتَرَاحَمُ الخلاَئِقُ حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَن وَلَدِهَا خَشْيَةَ أنْ تُصِيبَهُ»[١]، هو معنى مجرَّد، وهو معنى قريبٌ من المراد في حديث المرأة في السبي؛ فكأنّ حديثَ المرأة تصويرٌ وتجسيدٌ للمعنى النظريّ المجرّد في هذا الحديث، ويُصبح الموقفُ شرحًا وبيانًا لمعنى الرحمة، وهذا ما يخلق أثرًا بالغًا باقيًا في النفس الإنسانية.

وموقف آخر رواه جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، أنّ رسول الله ρ مرَّ بالسوق، والناسُ كَنَفَتَيْهِ، فمَرَّ بجدْيٍ أسكَّ مَيتٍ[٢]، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: «أَيُّكُم يُحِبُّ أنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟»، فقالوا: ((ما نُحبُّ أنه لنا بشيءٍ، وما نصنع به؟))، قال: «أَتُحِبُّونَ أنه لَكُم؟»، قالوا: ((واللهِ لو كان حيًّا كان عيبًا فيه لأنه أسَكُّ، فكيف وهو ميت؟))، فقال: «فَوَاللهِ لَلدُّنيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِن هَذَا عَلَيكُم»[٣].

لقد جاءت أحاديثُ كثيرةٌ تبيّن منْزلة الدنيا، وتحذّر من الاغترار بها، فقال υ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»[٤]، وقال:

(١) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة في مئة جزء، وصحيح مسلم: كتاب التوبة، باب سعة رحمة الله تعالى وأنها تغلب غضبه، واللفظ له.

(٢) كَنفَتيه، أي: جانبيه، وأسكّ: صغير الإذن مع لصوقها وقلة إشرافها. (ينظر: إكمال المعلم ٥١٢/٨)

(٣) صحيح مسلم: مقدّمة كتاب الزهد.

(٤) سنن الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله Y، وصحيح سنن الترمذي ٢٦٩/٢.

«إنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إلا ذِكْرُ اللهِ وَمَا وَالاه، وعَالِمٌ، أو مُتَعَلِّمٌ»[١]، لكنّ حديث الجدْي المعيب الميّت جعل الحقيقة ماثلة مشاهدة، والتأثير حاصلاً وواقعًا، وكان فيها اغتنامٌ لهذا المشهد الذي رآه أصحابه عيانًا، ومراعاةٌ لحالهم.

وفي معنى آخر يوصي الرسول ρ بالنِّساء، ويحثُّ على الإحسان إليهنّ، فيقول: «أكْمَلُ المؤمِنينَ إيمَانًا أحْسَنُهُم خُلُقًا، وخِيَارُكُم خِيَارُكُم لِنِسَائِهِم خُلُقًا»[٢]، ويقول: «اسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإنَّمَا هُنَّ عَوَانٍ عِنْدَكُم»[٣]، ويقول: «اسْتَوصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا؛ فَإنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِن ضِلَعٍ، وإنَّ أعْوَجَ شَيءٍ في الضِّلَعِ أعْلاهُ، فَإنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وإنْ تَرَكْتَهُ لم يَزَلْ أعْوَجَ، فاسْتوصُوا بِالنِّسَاءِ خَيرًا»[٤].

وهذه الأحاديث كلها جاء التوجيه بالرفق والإحسان مباشرًا وواضحًا، لكنْ ما أقرب المعنى في الحديث الأخير مما جاء في موقفٍ سارع υ إلى اقتناصه ليزيد هذا المعنى جلاء ووضوحًا، باستعارة بديعة[٥]، يغتنمها مقترنةً بالمشهد الحاضر؛ لتكون العظة أبلغَ، والإشارةُ أجلى، والمعنى آكدَ! فها هو في بعض أسفاره، ومعه غلامٌ له

---

(١) سنن الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله Y، وصحيح سنن الترمذي ٢٦٩/٢، وسنن ابن ماجة: كتاب الزهد، باب مثل الدنيا.

(٢) سنن الترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، وصحيح سنن الترمذي ٣٤٠/١، ومسند أحمد ٣٦٤/١٢، واللفظ للترمذي.

(٣) سنن الترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، وصحيح سنن الترمذي ٣٤١/١، وسنن ابن ماجة: كتاب النكاح، باب باب حق المرأة على الزوج، ومسند أحمد ٢٩٩/٣٤، واللفظ للترمذي.

(٤) صحيح البخاري: كتاب النكاح، باب الوَصَاة بالنساء، وصحيح مسلم: كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، واللفظ للبخاري.

(٥) ينظر: فتح الباري ٥٤٥/١٠.

يُدعى أَنْجَشة، وكان حاديًا حَسَن الصوت[١]، فكان يحدو وهو يسوق الإبل وعليها النساء؛ فقال رسول الله ρ: «يا أَنْجَشَة، رُوَيْدَك سوْقًا بِالقَوَارِير!»[٢]. ووجه الشَّبَه بين المرأة والقارورة راجع للضعف واللطافة وسرعة الانكسار، وللمعنى وجهان؛ أولهما: عدم أمان فتنة النساء بصوت أنجشة الحسن؛ فيكون الكسر هنا كسرًا مجازيًّا، وثانيهما: عدم أمان سقوطهنّ؛ لأنّ الإبل تنشط مع الحُداء وتُسرع. فيكون المعنى: كُفَّ عن حُدائك لئلا تفتنَ النساء، أو تُسقطَهنّ، أي: سُقْهُنّ كسَوقك القوارير لو كانت محمولة على الإبل، وكلا المعنيين وارد ومقبول. فأفاد ذلك من الحثّ على الرفق بالنساء ما لم تفده الحقيقة لو قال: "ارفق بالنساء"[٣].

توظيف الإشارة أو الحركة:

الإشارة لغة مثل الكلام، وبعض الإشارات والحركات تغني عن جمل وعبارات، وقد صار للإشارة اليوم لغة خاصة؛ يتخاطب بها الصمّ والبكم ويتفاهمون، وقديمًا قيل: ((الحرُّ يكفيه الإشارةُ))[٤]. وجعل الجاحظ الإشارة ثاني أصناف الدلالات على المعاني[٥]، وبيّن أنها تكون باليد، والرأس، والعين، والحاجب، والمنكب، وتكون بالثوب، وبالسيف[٦]، وقال: ((والإشارة واللفظ شريكان، ونِعْم العونُ هي له، ونِعْمَ

(١) ينظر: صحيح مسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ρ النساءَ والرفق بهنّ.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشِّعر والرَّجَز والحُدَاء وما يُكره منه، وصحيح مسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ρ النساءَ والرفق بهنّ.

(٣) ينظر: إكمال المعلم ٢٨٧/٧، وشرح صحيح مسلم ٨١/١٥، وفتح الباري ٥٤٥/١٠.

(٤) مجمع الأمثال ٢٩٦/١.

(٥) ينظر: البيان والتبيين ٧٦/١.

(٦) ينظر: البيان والتبيين ٧٧/١.

الترجمان هي عنه، وما أكثرَ ما تنوبُ عن اللفظ، وما تغني عن الخطّ. وبعد، فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة، على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها؟ وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير، ومعونة حاضرة في أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس، ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا ألبتة»[1].

«ويرى بعض الباحثين أن نسبة اللغة اللفظية في التعبير عن المعاني والمشاعر تتراوح بين ٣٠٪ إلى ٣٥٪، وقد تصل إلى ٤٠٪، بينما النسبة الأكبر للعوامل غير اللفظية، ويوصل بعضهم نسبة العوامل غير اللفظية إلى ٩٣٪»[2].

وحتى يكون للحركة أو الإشارة أثرها في نفس المستمع، فينبغي أنْ تكون متوافقة مع العبارة ومناسبة لها، كما ينبغي ألا تكون الحركات كثيرة بصورة تصرفُ ذهن السامع عن لبّ الموضوع، وتشتِّتُ ذهنَه.

وقد ثبت استثمار الرسول ρ للإشارة أو الحركة في أحاديث كثيرة بصورة إيجابية، حتى ارتبطت بعض الأحكام والفضائل في أذهان الناس بإشارته υ، وكأنّ من وظائف الإشارة التذكيرُ؛ إذْ تحتفظ الذاكرة بصورة مرئية وصورة مسموعة، فيكون هذا أدعى للحفظ والفهم.

ومن الإشارات التي استعملها الرسول الكريم ρ في أحاديث عديدة الإشارةُ بأصبعيه السبابة والوسطى للدلالة على القرب الشديد، أو التلازم بين أمرين. من ذلك حديثُ سَهْلِ بن سعد τ أنّ النبيّ ρ قال: «أنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ في الجَنَّةِ هَكَذَا»، وقال

(١) البيان والتبيين ٧٨/١.

(٢) رعاية حال المخاطب ٢٢٨.

بأصبعيه السبابة والوسطى[١]، وحديث أنس بن مالك τ أنّ رسول الله ρ قال: «مَن عَالَ جَارِيَتَينِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَومَ القِيَامَةِ أنَا وَهُوَ»، وضمّ أصابعه[٢]، والإشارة في هذين الحديثين تدلّ على قرب المنزلة. وحديثُ سهل بن سعد τ الآخرُ أنه سمع النبيّ ρ يقول: «بُعِثْتُ أنا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَينِ»، ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى[٣]، وفي الإشارة هنا دلالة على قرب الزمان، أو للتمثيل على أنه لا نبيّ غيره إلى قيام الساعة، فيكون في الإشارة بالإصبعين تمثيل له وللساعة بهما، وأنه لا أحد بينهما[٤].

وقد يستعمل النبيّ ρ إشارة تمثيلية لما يتكلّم فيه، كما في حديث أبي موسى τ عن النبيّ ρ قال: «المؤمِنُ لِلْمُؤمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، ثُمّ شَبَّكَ بَينَ أَصَابِعِهِ»[٥]. قال ابن حجر: ((ويُستفاد منه أنّ الذي يريد المبالغة في بيان أقواله يمثّلها بحركاته؛ ليكون أوقعَ في نفس السامع))[٦]. كما أنّ هذه الإشارة أدّت معنى ثانيًا هو معنى مراد في الحديث الشريف، فبها حصل التذكير بأنّ المؤمنين من جنس واحد، ومن جسد واحد، وأنهم قريبون من بعضهم، متماثلون في صفاتهم، وأنّ ما يصيب أحدَهم يصيب الآخرين، وفي هذا استدعاء للمعنى في الحديث الآخر الذي ضرب فيه رسولُ الله ρ المثلَ للمؤمنين بالجسد، فقال: «مَثَلُ المؤمِنِينَ في تَوَادِّهِم وَتَرَاحُمِهِم وَتَعَاطُفِهِم مَثَلُ الجسَدِ، إذَا اشْتَكَى مِنهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجسَدِ بِالسَّهَرِ

(١) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب فضل مَن يعول يتيمًا.

(٢) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الرقاق، باب قول النبيّ ρ «بُعثت أنا والساعة كهاتين»، وصحيح مسلم: كتاب الجمعة، باب خطبته ρ في الجمعة.

(٤) ينظر: شرح صحيح مسلم ١٥٥/٦.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا.

(٦) فتح الباري ٤٥٠/١٠.

وَالْحُمَّى»[١]، وهذا فيه استدعاء أيضًا لقوله υ: «ألاَ وَإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألاَ وهِيَ القَلْبُ»[٢].

وقد يشير υ إلى العضو المقصود للتأكيد على المراد، ودفع الوهم والغفلة؛ كحديث أبي هريرة τ الذي قال فيه رسول الله ρ: «لا تَحَاسَدُوا، ولا تَنَاجَشُوا، ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وكُونُوا عِبَادَ اللهِ إخْوَانًا، المسْلِمُ أخُو المسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا . ويشير إلى صدره ثلاث مرات . بِحسْبِ امْرِئٍ من الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أخَاهُ المسْلِمَ، كُلُّ المسْلِمِ عَلَى المسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»، وزاد في رواية: «إنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إلى أجْسَادِكُم، ولا إلى صُوَرِكُم، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُم»، وأشار بأصابعه إلى صدره[٣]. والإشارة في هذا الحديث تكرّرت مرارًا، وفي موضعين مختلفين، مما يدلّ على أنها لم تكن إشارة عابرة، أو عرضية، بل كان υ مدركًا لأثرها ودورها في بناء المعنى، ومما يلفت النظر أنّ الإشارة إلى القلب جاءت في هذا الحديث الممتلئ بأفعال القلوب، حتى بدا كأنه الجامع لها؛ فالحسد، والتباغض، والتدابر، والاحتقار؛ كلها من أمراض القلوب وسيئاته، بل إنّ غيرها مما ورد في الحديث له علاقة بالنيات وبأفعال القلوب؛ إذْ البيعُ المضِرُّ بالمسلم، والظلمُ، والخذلانُ، والاعتداءُ، هي مما بُني الفعل فيه على حسد أو بغضاء أو مكر أو سوء طويّة. وهذا كله يدلّ على أنّ للإشارة مكانةً في أداء

(١) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، وصحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، واللفظ له.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل مَن استبرأ لدينه، وصحيح مسلم: كتاب المساقاة والمزارعة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات.

(٣) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب.

المعنى، وأنها وسيلة من وسائل التأكيد تضافرت مع الوسائل اللفظية، واستُعملت في موضعها؛ فجاء موقعها حسنًا في القلب والعين.

وقد يستخدم يده استخدامًا آخر ليدلَّ على مراده، ويؤثِّر في مخاطَبيه، كما في حديث أنس بن مالك τ أنّ رسول الله ρ قال: «هَذَا ابْنُ آدَمَ، وهَذَا أَجَلُهُ»، ووضَعَ يَدَه عِنْدَ قَفَاهُ، ثم بَسَطَها أَمَامَهُ، ثمّ قال: «وَثَمَّ أَمَلُهُ»(١). وهنا استعمل كل يده، ووظَّفها توظيفًا جميلاً معبِّرًا عن معانٍ ودلالات عديدة؛ فقد عبّر به عن قربِ الأمل من نفس ابن آدم، وتعلّقِه به دومًا، وقربِ الأجل منه، وأنه بعيدٌ عن نظره، غائبٌ عن تفكيره، وأنّ الأجل يطارد الإنسان ويفجؤه من خلفه.

وقد تأخذ الإشارة شكلاً آخر مختلفًا ومميَّزًا، كما جاء في حديث عَديّ بن حاتم τ قال: قال النبيّ ρ: «اتَّقُوا النَّارَ»، ثم أعرض وأشاح، ثم قال: «اتَّقُوا النَّارَ»، ثم أعرض وأشاح، ثلاثًا، حتى ظنَنَّا أنه ينظر إليها، ثم قال: « اتَّقُوا النَّارَ، وَلَو بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»(٢). والمميز في حركة الرسول ρ هنا أنّها جاءت مصوِّرة لمشهد رؤية النار عيانًا، مما يُلقي في قلوب المخاطبين الهيبةَ والرَّهبةَ، وهذا هو ما تهدف إليه هذه الحركة؛ فإنّ الحديث عن غائبٍ لا يُتصوَّرُ على حقيقته، وكما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ρ قال: «لَيسَ الخَبَرُ

(١) سنن الترمذي: كتاب صفة الزهد، باب ما جاء في قصر الأمل، وصحيح سنن الترمذي ٢٧٢/٢، وسنن ابن ماجة: كتاب الزهد، باب الأمل والأجل.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الرقاق، باب مَنْ نُوقش الحساب عُذِّبَ، وصحيح مسلم: كتاب الزكاة، باب الحثّ على الصدقة وأنواعها وأنها حجاب عن النار.

كالْمُعَايَنَةِ»[١]. وهذه الحركةُ صوَّرتِ النارَ قريبةً مشاهدةً، وتأمّلْ قولَ الراوي ((حتى ظنَنَّا أنه ينظرُ إليها)) تعلمْ أنّ تلك الحركةَ قد آتتْ ثمرتها في نفوس أصحابه.

ومن الحركات والإشارات ذات الأثر في النفوس أنْ يَحكيَ المتحدِّث الفعلَ، أو يُمثِّلَه، حتى يشعر المخاطَبُ أو المتلقي أنه ينظر إليه رأيَ العين. مثال ذلك: ما جاء في حديث الثلاثة الذين تكلّموا في المهد، حديثِ أبي هريرة τ، وكان ثالثُهم ما أخبر النبيّ ρ بخبره بقوله: «وَكَانَتِ امْرَأَةٌ تُرْضِعُ ابْنًا لَهَا مِن بَنِي إسْرَائِيلَ، فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ رَاكِبٌ ذُو شَارَةٍ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهُ، فَتَرَكَ ثَدْيَهَا وَأَقْبَلَ عَلَى الرَّاكِبِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهَا يَمُصُّهُ» ـ قال أبو هريرة: ((كأني أنظر إلى النبيّ ρ يمصُّ إصبعَه)) ـ «ثُمَّ مَرَّ بِأَمَةٍ فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذِهِ، فَتَرَكَ ثَدْيَهَا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَقَالَتْ: لِمَ ذَاكَ؟ فَقَالَ: الرَّاكِبُ جَبَّارٌ مِنَ الجَبَابِرَةِ، وَهَذِهِ الأَمَةُ يَقُولُونَ: "سَرَقْتِ، زَنَيْتِ"، وَلَمْ تَفْعَلْ»[٢]. وما أجملَ حكايةَ الفعلِ وتمثيلَه في السياق القصصي؛ لأنه ينقل المخاطَب إلى جوّ القصة وتفاصيلها، ويجعله يشعر بأحاسيس شخصياتها، وهذا ـ ولا شكَّ ـ سبيلٌ إلى تأثُّرِه ومزيدٍ من فهمه.

ومن هذا القبيل وبابته قولُ عبد الله بن مسعود τ: ((كأني أنظر إلى النبيّ ρ يحكي نبيًّا من الأنبياء، ضربه قومُه فأدمَوهُ، وهو يمسح الدَّمَ عن وجهه، ويقول: "اللَّهُمَّ

(١) مسند أحمد ٣/٣٤١.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء، باب ٌّ ٍّ ئر ئز ئم ً ، وصحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تقديم برّ الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها، واللفظ للبخاري.

اغْفِرْ لِقَومِي فَإِنَّهُم لا يَعْلَمُونَ"))[1]. ومما يؤكّد أثر الإشارة أنّ ابنَ مسعود τ جعل هذه الحركةَ، أو حكايةَ النبيّ لهذا الفعل هي مدارَ روايته الحديث.

وقد تأتي حكايةُ الفعل في سياق التعليم وليس في سياق القصِّ، كما في حديث أبي هريرة τ أنَّ رسول الله ρ رأى نُخامةً في قبلة المسجد، فأقبل على الناس فقال: «مَا بَالُ أَحَدِكُمْ يَقُومُ مُسْتَقْبِلَ رَبِّهِ فَيَتَنَخَّعُ أَمَامَهُ؟ أَيُحِبُّ أَحَدُكُم أَنْ يُسْتَقْبَلَ فَيُتَنَخَّعَ في وَجْهِهِ؟ فَإِذَا تَنَخَّعَ أَحَدُكُم فَلْيَتَنَخَّعْ عَن يَسَارِهِ، تَحْتَ قَدَمِهِ، فَإِنْ لم يَجِدْ فَلْيَقُلْ هَكَذَا»، ووصف القاسمُ . أحدُ الرواة . فتفل في ثوبه، ثم مسح بعضه على بعض، وقال أبو هريرة: ((كأني أنظر إلى رسول الله ρ يردّ ثوبه بعضه على بعض))[2].

ومن الحركات حركة تغيير الجلسة؛ إذْ توحي للمخاطَبين بتغيّر الحديث، أو تغيُّر السياق، أو ورود موضوع مهمّ عند المتكلّم، وهذا كافٍ في شدّ أنظارهم، وحُسن استماعهم، ووعيهم بالمراد. ومن أمثلة ذلك: حديث عبد الرحمن بن أبي بَكْرة عن أبيه τ قال: قال النبيّ ρ: «ألاَ أُنَبِّئُكُم بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟»، ثلاثًا، قالوا: ((بلى يا رسول الله))، قال: «الإشْرَاكُ بِاللهِ، وعُقُوقُ الوَالِدَينِ»، وجلس وكان متكئًا، فقال: «ألاَ وَقَولُ الزُّورِ». قال: ((فما زال يكرِّرها حتى قلنا: ليته سكت))[3].

(١) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء، باب حديث الغار، وصحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، واللفظ للبخاري.

(٢) صحيح مسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن البصاق في المسجد.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور.

وقد تأخذ الإشارة أو الحركة هيئةً أوسعَ ومدًى أرحبَ، وذلك حين تقوم على الخطّ والرّسم، فيكون في البيان بهذه الطريقة من الإيضاح والتأثير ما ليس في غيرها. من ذلك حديث أنس بن مالك τ قال: ((خطَّ النبيّ ρ خُطوطًا))، فقال: «هَذَا الأَمَلُ، وهَذَا أَجَلُهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُ الخَطُّ الأَقْرَبُ»، وهذا إجمال جاء تفصيله في حديث ابن مسعود τ، حيث قال: ((خطَّ النبيّ ρ خطًّا مُربَّعًا، وخَطَّ في الوسط خطًّا خارجًا منه، وخطَّ خُطَطًا صِغارًا إلى هذا الذي في الوسط، من جانبه الذي في الوسط))، وقال: «هَذَا الإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ، وَهَذَا الذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا»(١).

هَذَا»(١).

وقد جاء الحديث بروايات أخرى عن ابن مسعود τ، أُوردُها لعلّ في إيرادها توضيحًا وتقريبًا لما خطَّه رسولُ الله ρ؛ فرواية الترمذي: ((خطَّ لنا رسول الله ρ خطًّا مُربَّعًا، وخطَّ في وسط الخطّ خطًّا، وخطَّ خارجًا من الخطِّ خطًّا، وحول الذي في الوسط خُطوطًا))، فقال: «هَذَا ابنُ آدَمَ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ، وهَذَا الذي في الوَسَطِ الإِنْسَانُ، وهَذِهِ الخُطُوطُ عُرُوضُهُ، إِنْ نَجَا مِن هَذَا يَنْهَشُهُ هَذَا، والخَطُّ الخارِجُ الأَمَلُ»(٢).

ورواية ابن ماجة: ((أنه خطَّ خطًّا مُربَّعًا، وخطًّا وسطَ الخطِّ المربَّع، وخطوطًا إلى جانب الخطّ الذي وسط الخطّ المربَّع، وخطًّا خارِجًا من الخطّ المربَّع))، فقال:

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الرّقاق، باب في الأمل وطوله.

(٢) سنن الترمذي: كتاب صفة القيامة، باب "أمل الإنسان وأجله وتشبيه ذلك بالخطوط"، وصحيح وصحيح سنن الترمذي ٢٩٨/٢.

«أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟»، قالوا: ((اللهُ ورسولُه أعلمُ))، قال: «هَذَا الإنْسَانُ الخَطُّ الأوْسَطُ، وهَذِهِ الخُطُوطُ إلى جَنْبِهِ الأعْرَاضُ تَنْهَشُهُ مِن كُلِّ مَكَانٍ، فَإنْ أخْطَأهُ هَذَا أصَابَهُ هَذَا، والخَطُّ المرَبَّعُ الأجَلُ المحِيطُ، والخطُّ الخارِجُ الأمَلُ»(١).

ويمكن بيان هذا الرسم التوضيحي في الأشكال التالية:

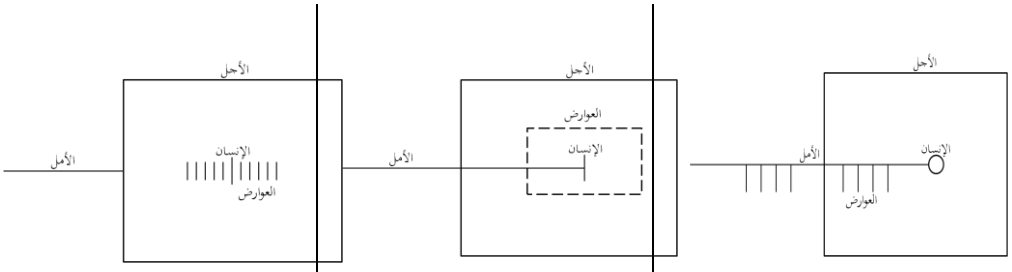

رواية البخاري(٢) رواية الترمذي رواية ابن ماجة

وبهذا صوّر υ الحياة بكاملها، بحلوها ومُرِّها، وكيف تتخطّف الإنسانَ الآفاتُ والشواغلُ، بينما يمتدّ أملُه، ويتعاظم طمعُه، حتى يغشاه الموتُ!

❁❁❁❁❁

وختامًا، فإنّ بحث هذه المظاهر في حديثه ρ وبيانه موضوعٌ حيويٌّ متجدِّدٌ؛ لأنه دراسةٌ في الإنسان ذاته، قبل أنْ يكون دراسة في الألفاظ، وهو يقرِّب اللغة إلى ذائقة الناس في زمنٍ عظم صدُّهم عنها، وهو درسٌ في الخُلُق النبويِّ الشريف، وكيف كان يتعامل مع الناس، بمختلف طبقاتهم، وتفاوت عقولهم وأفهامهم.

(١) سنن ابن ماجة: كتاب الزهد، باب الأمل والأجل، وصحيح سنن ابن ماجة ٢/٤١٤.

(٢) ينظر: فتح الباري ١١/٢٣٧، ورجح ابن حجر هذا الشكل.

ولعلّ البحث يكون مشجِّعًا لمزيد من الدراسات التحليلية والتطبيقية، التي تُعنى بالكشف عن تلك المظاهر من خلال السنة الصحيحة الثابتة، مع ربط الدلالات والشرح بروايات الحديث الأخرى(١)، وبالأحاديث الأخرى التي قد تكون مفسِّرة وشارحة ومبيِّنة، وبنصوص القرآن العزيز(٢)، وأرى أنّ هذا باب واسعٌ يحتمل الكثير من الدراسات، والله سبحانه هو المعين، ولا حول ولا قوة إلا به.

❁❁❁❁❁

(١) ينظر: التصوير البياني في حديث "الموعظة البليغة" وأثره في بناء المعنى من خلال رواياته ونظائرها في القرآن والسنة، والبلاغة النبوية في ضوء تعدُّد الروايات الحديثية.

(٢) ينظر: التصوير البياني في حديث الموعظة البليغة ١٠٨١.

المراجع

١. **أسرار العربية**، أبو البركات عبدالرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري (٥٧٧هـ)، تحقيق: محمد بهجة البيطار، مطبعة الترقي، دمشق، ١٣٧٧هـ = ١٩٥٧م.

٢. **الإصابة في تمييز الصحابة**، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد، المعروف بالحافظ ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، تحقيق: د. طه محمد الزيني، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م.

٣. **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، مصطفى صادق الرافعيّ (١٣٥٦هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م.

٤. **إكمال المُعْلِم بفوائد مسلم (شرح صحيح مسلم)**، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (٥٤٤هـ)، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م.

٥. **أمالي ابن الشجري**، هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسني العلوي (٥٤٢هـ)، تحقيق ودراسة: محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.

٦. **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك**، أبو محمد عبدالله جمال الدين ابن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام الأنصاري (٧٦١هـ)، شرح: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا . بيروت.

٧. **الإيضاح في علوم البلاغة**، للخطيب القزويني (٧٣٩هـ)، شرح وتعليق وتنقيح: محمد عبدالمنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الثانية.

٨. **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح**، عبدالمتعال الصعيدي (بعد ١٣٧٧هـ)، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، الطبعة السابعة.

٩. **البلاغة النبوية في ضوء تعدُّد الروايات الحديثية**، د. يوسف بن عبدالله العليوي، دار كنوز إشبيلية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ = ٢٠١٤م.

١٠. **البيان والتبيين**، الجاحظ (٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

١١. **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن**، ابن أبي الإصبع المصري (٦٥٤هـ)، تقديم وتحقيق: د. حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي.
١٢. **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، أبو العُلا محمد عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري (١٣٥٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.
١٣. **التصوير البياني في حديث "الموعظة البليغة" وأثره في بناء المعنى من خلال رواياته ونظائرها في القرآن والسنة**، د. أحمد بن صالح السديس، بحث منشور في مجلة كلية الآداب بجامعة بنها بمصر، العدد الرابع عشر، ٢٠٠٦م.
١٤. **التكرير بين المثير والتأثير**، د. عز الدين علي السيد، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م.
١٥. **تلخيص المفتاح**، الخطيب القزويني (٧٣٩هـ)، ضبطه وشرحه: عبدالرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٥٠هـ = ١٩٣٢م.
١٦. **ثمرات الأوراق**، أبو بكر بن علي بن محمد بن حجة الحموي (٨٣٧هـ)، صححه وعلّق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧١م.
١٧. **الخصائص البلاغية للبيان النبوي**، د. محمد أبو العلا أبو العلا الحمزاوي، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م.
١٨. **خصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د.** محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة السادسة، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.
١٩. **الخصائص الفنية في الأدب النبوي**، د. محمد بن سعد الدبل، مكتبة العبيكان، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م.
٢٠. **دلالات التراكيب: دراسة بلاغية، د.** محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة الرابعة، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.
٢١. **دلائل الإعجاز**، عبد القاهر الجرجاني (٤٧٤هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ= ١٩٨٩م.
٢٢. **الرسالة**، محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٥٨هـ.

٢٣. **رعاية حال المخاطَب في أحاديث الصحيحين: دراسة بلاغية تحليلية**، د. يوسف بن عبدالله العليوي، عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م.
٢٤. **الزاهر في معاني كلمات الناس**، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (٣٢٨هـ)، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.
٢٥. **سنن ابن ماجة**، الحافظ أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
٢٦. **سنن أبي داود**، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥هـ)، تحقيق: عزت الدعاس وعادل السيد، دار الحديث، حمص، الطبعة الأولى، ١٣٨٨- ١٣٩٤هـ.
٢٧. **سنن الترمذي**، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (٢٧٩هـ)، أشرف على التعليق والطبع: عزت عبيد الدعاس، مكتبة دار الدعوة، حمص، ١٣٨٥هـ.
٢٨. **السنن الكبرى**، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ.
٢٩. **سنن النسائي**، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي (٣٠٣هـ)، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
٣٠. **سير أعلام النبلاء**، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٧٤٨هـ)، أشرف على تحقيقه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.
٣١. **شرح الرضي على الكافية**، لرضيّ الدين محمد بن حسن الأستراباذي (٦٤٦هـ)، تحقيق: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قاريونس.
٣٢. **شرح النووي لصحيح مسلم**، الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ)، عُني بنشره: محمود توفيق، مطبعة حجازي بالقاهرة.
٣٣. **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، القاضي عياض اليحصبي (٥٤٤هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٤. **الصاحبي**، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (٣٩٥هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٧٧م.

٣٥. **صحيح البخاري**، محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ)، عناية: د. مصطفى ديب البُغا، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.
٣٦. **صحيح سنن ابن ماجة باختصار السند**، محمد ناصر الدين الألباني (١٤٢٠هـ)، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.
٣٧. **صحيح سنن الترمذي باختصار السند**، محمد ناصر الدين الألباني (١٤٢٠هـ)، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.
٣٨. **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج القُشيري النّيسابوري (٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول.
٣٩. **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العيني (٨٥٥هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م.
٤٠. **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني (٤٥٦هـ)، تحقيق: د. محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.
٤١. **عون المعبود شرح سنن أبي داود**، أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي (بعد ١٣١٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.
٤٢. **غريب الحديث**، ابن قتيبة عبدالله بن مسلم (٢٧٦هـ)، تحقيق: د. عبدالله الجبوري، وزارة الأوقاف بالجمهورية العراقية، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م.
٤٣. **الفائق في غريب الحديث**، لجار الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٢٨هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، الطبعة الثانية.
٤٤. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، حقق الأجزاء الثلاثة الأولى منه: الشيخ عبدالعزيز بن باز، المكتبة السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى.
٤٥. **كتاب الصناعتين**، لأبي هلال الحسن بن عبدالله العسكري (٣٩٥هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي وحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ = ١٩٥٢م.

٤٦. **الكشاف عن حقائق غوامض التنْزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٢٨هـ)، رتبه وضبطه وصححه: مصطفى حسين أحمد، مطبعة الاستقامة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٧٣هـ = ١٩٥٣م.

٤٧. **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ابن الأثير (٦٣٧هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١١هـ.

٤٨. **مختصر الشمائل المحمدية**، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (٢٧٩هـ)، اختصره وحقّقه: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الرابعة، ١٤١٣هـ.

٤٩. **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ)، شرح وتعليق: محمد جاد المولى بك ومحمد أبو الفض إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا . بيروت، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م.

٥٠. **المستدرك على الصحيحين**، الحافظ أبو عبدالله الحاكم (...)، دار المعرفة، بيروت.

٥١. **مسند الإمام أحمد بن حنبل** (٢٤١هـ)، أشرف على تحقيقه: الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.

٥٢. **مفتاح العلوم**، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي (٦٢٦هـ)، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

٥٣. **المفصَّل في علوم البلاغة العربية**، د. عيسى علي العاكوب، دار القلم، دبي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م.

٥٤. **منال الطالب في شرح طوال الغرائب**، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير (٦٠٦هـ)، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة.

٥٥. **النحو الوافي**، عباس حسن، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٤م.